الأشياء التي فهمتها

محمود عبد الوهاب

نصوص

فريق متميزون

E-BOOK

المرايا

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأشياء التي فهمتها

(نصوص)

محمود عبد الوهاب

عن الكتاب..

يغوص السيد عبد الوهاب في عالم الرؤي والاحلام ويشرك القارئ معه في هذه المنطقة المظلمة من اللاوعي. يستحضر الراوي عبر الاحلام لقاء الراحلين وعلاقات الحب القديمة، وهجر الأصدقاء وتنمر زملاء العمل، وهواجس الكشف والتعري، تطارده فيها أشباح الماضي وتملأ فراغ أيامه.

يقدم عبد الوهاب نصوصا تستعصي على التصنيف، تقع ما بين السيرة الروائية والأحلام أي ذلك النوع الأدبي الذي أرساه أديب نوبل نجيب محفوظ وحمله بمزيج من الفانتازيا والحكمة في آن واحد. تمثل هذه النصوص رحلة وعي. لكنها رحلة عكسية لا تستند على الواقع للتحليق في عالم الأحلام.

بل تبدأ من الحلم لتكشف وتستجلي الواقع. فمن خلال عالم الأحلام والفانتازيا والرؤى الكابوسية نتعرف على مسيرة الشخصية، وعلى عقلها الباطن.

يستنطق الحلم الواقع فتنفتح أبواب الوعي وتتجلى الصورة بوضوح وتتبدى الأشياء التي كانت مستغلقه على الفهم.

الأشياء التي فهمتها هي سيرة ذاتية تتكئ على الأحلام لتخط مسيرة حياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١

رأيتها كثيرًا بعد وفاتها، في البدايات كل ما كنت أشعر به هو وجودها فقط في المكان، ثم عند تتالي المرات أخذ الوجود يزداد اقترابًا وكثافةً، لم يكن قد مضى على موتها أكثر من شهر عندما بدأت أراها ثانية، كان هذا عكس ما حدث مع الأقرباء الآخرين، وأقربهن خالاتي.

ظهرت لي كثيرا بعد ذلك، وعقب كل ظهور كنت أفيق على حالة من السعادة غير المكتملة، كأني أريد شيئًا أكثر من مجرد الوجود، وصالًا أكبر يدوم، إلى أن رأيتها مرتين متتاليتين، وبدا لي الأمر كأن إحداهما تسليم للأخرى، ففي البداية رأيتنا خارجين من مكان أشبه بمول ذي باب زجاجي كبير، وما إن تركت يدها لانشغالي بشأن ما، حتى اختلط عليها الأمر، فاتجهت نحو الزجاج ظنًّا منها أنه الباب. أسرعت إليها وأخذت يدها غير أن نتيجة الحركة السريعة أن قدمها التوت.

وفي المنزل أحضرت الماء الساخن وبعض الملح وبدأت أدلك قدمها، ويبدو أني دلكت بطريقة خاطئة مما حدا بها إلى أن تنهرني قائلة:

- ده تدليك ده؟

أثر الحلم كان السرور بعد الاستيقاظ، لم يهمني نهرها لي، بل أسعدني أن صوتها كان قويًّا ووعيها كاملًا. رأيتها قوية.

ثم رأيتني ثانية وقد أوصلتها بالسيارة من مكان إلى آخر، ثم فتحت باب السيارة ومددت لها يدي على اتساعها لتمسك بها كيفما ترغب، ثم رفعت يدي بها فقامت، مشينا خطوةً إلى الخلف كي نغلق الباب، نظرت إلى حيث تريد أن تذهب، كان سورٌ ممتدٌّ لنادٍ كبيرٍ، وقد تكاثفت عليه الأشجار بصورة جميلة، أما الشمس فكانت رقيقة إلى درجة أن أشعتها تكاد تبين، خلال الأغصان، كخطوط ذهبية متقطعة.

كانت داخلة وحدها إلى النادي للقاء بعض الأقارب، وطلبت مني ألا أنتظرها لأنهم مَن سيقومون بتوصيلها آخر اليوم، فسألتها:

- أوصلك لجوه طيب؟

قالت لي بابتسامة شجاعة:

- لا مفيش داعي، أنا عارفة طريقي كويس.

وقبل أن تغادرني، فاجأتني بشيء لم أعهده من قبل، قبَّلتني على عيني، وغادرت، فصحوت أتحسس رطوبة شفتيها، وأبتسم من فرط القرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٢

قبَّلتني كثيرا تلك المرة وهي نائمة بجواري بينما أنا بين بين، أرى نفسي وأعلم بأنني أحلم وأنها لم تعد موجودة في دنياي، سعيد بقُبلاتها، تعيس في الوقت نفسه؛ لأني أعلم أنها ستموت ثانية فور انتهاء الحلم، كنت أيضًا أعزي نفسي طول الوقت مذكرًا إياها بأنني أحلم وأنها ميتة في الواقع، وأنها لن تعرضني لألم موتها ثانية.

عندما استيقظتُ، فرحت بالخلاص من الموقف، واكتشفت في الوقت نفسه حقيقة عدم ترحيبي برجوعها ثانيةً، ما دام الألم هو المكتوب في نهاية الأمر، فشعرت بالحزن والفرح والخزي في آن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

رأيتها ثانية بالأمس، في بيتنا بالإسكندرية، كان معي أخي الأوسط وهو مَن كان يعتني بها هذه المرة، ولسبب ما كان لزامًا عليَّ أن أغادر الإسكندرية، ورأيت أخي ينظر إلى زوجته اللطيفة ويخبرها بأنهما سيدخلانها المستشفى في الغد؛ لأنها تتعثر قليلًا في مشيتها، كنت في هذا الحلم محتارًا بين تيارين يتبادلانني: الأول أنها ميتة بالواقع ولذلك فلا داعي مجددًا للقلق، والثاني أنها لم تمت بعد، لكنها حتمًا ستموت في القريب العاجل، فشعرت بالرهبة مجددًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤

أبيتُ في غرفة نومنا القديمة ببيت أبي، ومن خلال الباب الموارب تنير اللمبة «السهاري» الطرقة، وباب الثلاجة يفتح من تلقاء نفسه ويغلق كل عدة دقائق، وكلما استغرقت في النوم يجدد حركته خصيصًا، فأستيقظ مذعورا.

شعرت بالعار أن كيف تكون شقتي تلك التي أشعر بالخوف داخلها، قاومت نفسي وقمت، وقفت على باب الغرفة وأخذت أصرخ، لكني لم أسمع لنفسي صوتًا، فتجاوزت الثلاجة، راميًا بنفسي في المجهول.

بدأت أسمع صوت المرأة التي فكرت كثيرا في الزواج بها، قادمًا من «أودة القعاد»، وكانت تضحك فاتجهت إليها، لاحظت –مع كل لحظة تمر-أن صوتها يتغير، يبدو أصغر عمرًا، لكن ضحكتها تبدو –مع ذلك-أكثر خبثًا. تمثلت رداءة الحياة حينئذ في تلك الصورة، وآمنت بأن هذه المرأة الماثلة أمامي لهي سببٍ كل الشرور في المنزل، واجتاحني إحساس بالغربة، وأني أضعتُ وقتًا طويلًا في الأوهام.

كنت قد فكرت كثيرًا في الزواج من هذه المرأة، غير أن شيئًا غامضًا دائم الوجود كان دائمًا يوقفني، لم أكن أحس بأنها صادقة تمامًا، أو ربما كنت أحس بها تضع قناعًا دائمًا على وجهها، الأمر الذي كان يحول بيني وبين تلمس مشاعرها الحقيقية، ولذلك، فبرغم إعجابي بجمالها الباهر، وأنوثتها الطاغية، لم أستطع أبدًا أن آخذ قراري بالارتباط بها.

وكانت سريعة النجاح في أي مجال تقوم به، ولكنه كان في نظري دائمًا نجاحًا زائفًا، يعتمد على قوة العلاقات الشخصية وترابط المصالح، أكثر بكثير مما يعتمد على موهبة حقيقية في الإبداع.

وإذ ذاك خطر لي أن أفتح باب غرفة نوم أمي، فرأيتها –على غير ما كانت عليه في الحياة-فاقدة للعقل بالكامل، والغرفة تسبح في بحر الفوضى، لعب أطفال في كل مكان، مبعثرة، وهي جالسة على الأرض، مسندة جسدها إلى الحائط، الذي كان مكسورًا بحجم إنسان كامل، مفضيًا إلى حديقة الفيلا المجاورة، وهناك كان يلمع النجيل الأخضر بفعل أشعة الشمس.

هنا اقتربت من أمي وقعدت بجانبها، وربَّت على ظهرها، ثم سألتها ضاحكا وشعور بالحنان يملأ قلبي:

- تيجي نروح المنتزه؟

أومأت لي بسعادة بالإيجاب، فقمت وعاونتها على القيام متجهين إلى الخارج، والسعادة تملأ قلبي، وقد فقدت الاهتمام بكل ما يحدث في الشقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٥

رأيت أمي مريضة في يوم به مظاهرات، وكان لزامًا على أن أذهب بها إلى الطبيب سيرًا على الأقدام، فأشفقت عليها من مغبة ذلك، وأخذت أهون عليها وأقبلها على خدها الأيسر محتضنًا إياها في رفق، وزاد من ألمي تذكري لموعد وفاتها، وبأن كل هذا ألم مكتوب على أن أتجرعه عما قريب، وإذ ذاك تملكتني قوة لا أدري من أين أتت، فأخذت أعود، وأخذ الواقع يحل تدريجيًّا محل الطيف النوراني، فعرفت أني أحلم، وأخذت أردد لنفسي بقوة: إنها ميتة، إنها ميتة، حتى أفقت سعيدا، بأنه ما من إمكانية لمعاناة جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦

رأيت أمي متوفاة ونحن صغار، على غير الواقع. وجاءت قريبة لنا تخبرنا بأن طعامنا سيكون دائمًا في بيت خالة من الخالات، فأصابني الوجوم على الرغم من حبي لهن، وقعدت أنظر إلى البحر لا إلى وجه محدثتي، وكان شعوري بأن البيت انتهى بغياب أمي، فقررت ألَّا آكل أبدًا في بيوت الآخرين، وألا أعطي للهلاك المرتقب أي أهمية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧

بالأمس أمسكت بصورة كبيرة لأبي من الأبيض والأسود، محاطة ببرواز قديم، وقد خلعت ظهر الصورة لأريهما ما خفي من ألاعيبه، كنا واقفين في حجرة السفرة في بيت زيزينيا القديم، أخي الأوسط، ذلك الذي تربى هناك في طفولته، وزوج خالتي، وأنا الذي أقمت في نفس البيت أوائل الشباب.

قلت لهما إن هناك في الخلفية ظلًّا لصورة أخرى بالألوان لأبي وهو يضحك، مطبوعة على الزجاج بغير ورق، حيث ألصق وجهها على الزجاج لعدة سنوات إلى أنَّ طُبعت عليه، ثم خلعها وخبأها حيث لا نعلم.

بدأ أبي يضحك بصوت مسموع في الصورة الملونة، التي أخذت تهتز في يدي من قوة ضحكاته، وكانت أسنانه اللامعة تظهر وتختفي عيناه الضيقتان، ولم يعد لدينا جميعًا شك في أننا أمام سحر مبين، وعند ذلك تجسد لي أبي، ثم فاجأني بصورة أخرى لسيدة عجوز ولكن جميلة، أخذت تتثنى في دلال لم يخلُ من وقار، وما لبثت أن خرجت هي الأخرى من الصورة، متبخترة إلى حجرة النوم، وتبعتها أخرى، ثم ثالثة، حتى امتلأت الحجرة بالنساء، وأخي يسألني عنهن، فأجيبه في خجل، محاولًا مداراة الأمر، بأنهن قريبات أبي اللاتي غادرن الحياة قبل أن نصل نحن إليها، غير أن الحجرة امتلأت بهن، كن متشحات بالسواد، ممسكات بالسجائر بين أطراف أصابعهن، وقد بدت عليهن الخلاعة، فأحسست بالرعب يجتاحني من منظرهن، وكنت غير قادر على التفكير بوضوح، فلماذا كانت صورة أبي في بيت زيزينيا؟ وكيف لم يحدثني أبدًا عن النساء اللاتي عرفهن في حياته؟ وهل كنَّ بهذه الكثرة؟ لم يكن لدي أبدًا أي إجابة عن كل هذه الأسئلة، وفكرت أن فضولي السقيم هو الذي جرَّ على كل تلك المتاعب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨

بالأمس أخذت أمي في احتضان حَانٍ، كنا في فيلا خالتي بالعجمي، واقفين ثلاثتنا في الطرقة، أمي وخالتي فوقية (وهي على قيد الحياة) وأنا، خالتي هي الوحيدة التي ظهرت في منتصف عمرها، أما أمي فكانت على آخر صورة لها، وأنا أيضًا، بدت وجنتا أمي مسحوبتين قليلًا إلى الداخل مما أثار قلقها، فأخذنا جميعًا نتباحث في الأمر، تفحصت وجنتَي أمي، فوجدت عليها علامات الموت واعتصر قلبي، إلا إني تماسكت وهونت عليها الأمر، ملمحًا إلى أنه عارض بسيط وسيزول، وأخذتها في حضني، ومكثت أُقبِّل وجنتها اليُمنى، وهي قالت لي راضية ورأسها على كتفي: - عمري ما حسيبك أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩

ذاهب إلى مكان غير محددة هويته. أهو بيتنا؟ أم بيت أقاربنا الذين يحبون كل شيء فخيم في الحياة؟ على أي حال أنا الآن هناك، وأحد أقاربي استدعاني؛ لأشرح لضيوفه أمرًا معقدًا في تخصصه الدقيق، الأرض كلها رخامية والمكان مكشوف كأنه سطح عمارة صُمِّم للمناسبات السعيدة، المنضدة كانت دائرية عليها أفخم أنواع الطعام، موضوع على مفرش ناصع البياض وغالي الثمن، وقد انتظمت على المنضدة أدوات الطعام الفضية اللامعة، وأكواب الماء الكريستالية، تذكرت فورًا أني غير مُلمٍّ بشيء يذكر في تخصصه غير الأساسيات، وكان لا يزال يعدد لي المهام والنقاط التي يطلب مني شرحها لضيوفه، وإذ ذاك حانت مني نظرة إلى ملابسي، فرأيت نفسي بالفانلة الداخلية وبنطلون البيجاما والشبشب المنزلي، أشرت له إلى ملابسي معتذرًا عن عدم إمكاني الجلوس معهم، ومستغربا في الوقت نفسه من كيفية مجيئي إلى هذا المكان بملابس البيت، لكنه لم يعبأ. وما إن جلست، حتى كدت أموت من فرط الخجل، فلم أعد أرى شيئًا، وأصبت بدوار خفيف ووقع بي الكرسي إلى الوراء.

وفي رقدتي تلك رأيت أمي جالسة وحدها بتواضع على السور القصير المجاور، فرحت وقلت لنفسي إنها فرصة أخرى من الفرص التي توفرها الحياة للقاء الذين غابوا، وكأنها كانت تسمع ما يدور بعقلي، ولذلك فما إن جلست بجوارها حتى قالت لي:

- ببقى مبسوطة قوي كل ما تيجي فرصة زي دي.

احتضنتها، فتألمت قائلة إن كتفها مجبور، وأرتني إياه، تذكرت أن ذلك قد حدث فعلًا في الماضي، فاحتضنتها ثانية بطريقة أخرى وظللت أُقبِّلُها، متأملًا حياتي وكيف أني لم أعد أرى أقاربي هؤلاء منذ وفاتها، ثم حانت مني نظرة للموائد المحيطة والأقارب، فاكتشفت أنه لم يعد هناك أحد في كل هذا السطح العامر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠

لم تؤخرني أمي عن عملي كما توجست، ذلك عندما أتت إليَّ في الصباح الباكر، طالبة أن أصطحبها إلى حديقة الأورمان، فأتركها هناك إلى حين عودتي من عملي.

كنت قلقًا أن تستطيع بذل كل هذا المجهود في المشى والحركة، ولذلك فعندما وصلنا راقبتها وهي تسير كي أطمئن على لياقتها في المشي، ولدهشتي كانت صحتها أفضل مما كانت عليه بنحو عشر سنوات سابقة، وقد ارتدت زيًّا مبهجًا بلون التركواز.

لكني قبل أن أغادر الحديقة وجدت نفسي وإياها في حديقة الشلالات بالإسكندرية، حينئذ ضعف أملي في أن أتمكن من الذهاب إلى العمل اليوم، وما لبثت الأحداث أن جرت بعد ذلك بسرعة مدهشة، فرأيتنا في حدائق الساحل الشمالي، وأنا غير قادر على تركها، كانت تعطف على الأطفال وتنحني لهم في صحة واضحة، فتعطيهم حلوى ثم تواصل سيرها، ووصل بها الحد أن بدت تحملأتأت تحمل عني حقيبتي أحيانًا، وأنا في حالة من السعادة المتزايدة، لأن صحتها تتحسن باضطراد، وعند ذلك لم يعد يهمني العمل في شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١١

أما البيت فكان بيتنا في الإسكندرية، مضاعف حجمه إلى قسمين، فالأمامي شقة أبي في السراي، والخلفي ساحة كبيرة هي الحديقة الخلفية لفيلا خالتي بزيزينيا، المكان الذي قضيت به أحلى السنوات وآخرها قبل مغادرتي الإسكندرية.

وكالغائب عن البيت فترة كسفرٍ، عدت لأجدهم جالسين في «أودة القعاد»، وأمي في خمسينيات عمرها، وشخص غريب بالداخل، وسيم، طويل القامة، يشبه نجوم السينما، وهو مهذب، لكنه غريب تمامًا.

وعرفت أن أبي وأمي قد قاما بالطلاق، بعد أن شكت فيه أمي كثيرًا أنه يحب امرأة أخرى، وكان لها ما أرادت. أما هذا الرجل الغريب فعريس جديد تقدم لها، وبعض أفراد العائلة الجالسين، الذين لم أتبينهم بدقة، كانوا مرحبين، والجو كان بهيجًا.

ثم انتقلنا للاحتفال في الساحة الخلفية، وكنت أسعد الموجودين بهذا، لأني سأتمكن من رؤية حديقتي التي زرعتها قديمًا، ولم أشعر بأي خيبة أملٍ، عندما وجدتها قد تحولت إلى ساحة إسمنتية أنيقة فاخرة، يتبادل فيها المحتفلون الأنخاب، وتزدهر بأغلى عناصر الديكور.

بدت الفيلا المجاورة على طبيعتها، مما مكنني من إعادة تصور أين زرعت الأشجار، فهنا كانت نخلة، وهنا كانت شجرة البونسيانا، أما هنا حيث أقف مجاورًا للسور فكانت شجرة الفلفل الكبيرة.

لم يعرف أحد من الموجودين شعوري هذا، فقد كنت في احتفال داخلي خاص بما حققته، ويبدو أن الحفل أوشك على الانتهاء، فعدنا إلى البيت.

عندئذٍ أخذت أفكر وقد أخذ تبصري يرجع إليَّ، أين عسى أبي يكون، سألت الناس فلم يجبني أحد، فتألمت لحاله هل بعد كل هذا العمر أن يقيم في بنسيون؟ وكنت متأكدًا من أني لو بحثت جيدًا فسأجده، وعقدت العزم على القيام فورًا والبحث عنه، وإعادته إلى بيته، وإصلاح كل هذا الخطأ، فهذا الرجل الغريب سيغادر فورًا، وأمي ستكون سعيدة بهذا، فهي تحب أبي، وهو يحبها، ولذلك ستكون مهمة إعادتهما إلى بعضهما البعض في غاية اليسر، وكنت أفكر وأنا أبحث عنه، في أنه لولا انشغالي بالأشجار فترة من فترات حياتي، ما كان حدث ما حدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

١٢

احتضنتها بشدة من فرط سعادتي برجوعها، وإذ ذاك انزلقت مني على الأرض منثنية، فنزلت معها لأساعدها على الوقوف، وتذكرت وهنها الأخير، ثم جال بخاطري حزني لموتها المرتقب، وطافت بخيالي مشاهد يوم الموت، وتذكرت صديقتي التي علمت بالخبر فواستني، وكمّ المهدئات التي تناولتها، وصلاة الجنازة، ثم ضحكي في المساء، وسكري والغناء، تذكرت كل هذا وآلمني أني سأراه ثانية، إلا أن أمي طمأنتني وهي بين ذراعي أنها ماتت بالفعل منذ أعوام، وضحكت وقالت إني لن أحزن ثانية لفراقها، فقمت مبتهجًا لذلك، وسعيدًا لرؤيتها في الوقت نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٣

في بيتنا بالإسكندرية، وجدت الشارع قد تحول إلى جراج، وسيارتي الأولى التي تعلمت بها القيادة ترقد هناك، فيات ١٢٧ حمراء، وقد فُقدت بالأمس.

كنت قد حضرت للإسكندرية منذ يومين، وكان أخوايَ هناك، ولما كانت والدتي قد توفيت في العام الماضي فقد وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة لأول مرة في البيت بعد غياب الأم.

قلت لأخويَّ إني سأذهب إلى السينما في المساء، ولأقول الحقيقة فإني لم أكن معتادًا على وجودنا معا من دونها، لم أعرف كيف أتصرف كأخ أكبر، ولهذا رغبت في ترك البيت.

في الصباح اكتشفت سرقة السيارة، فحملت أخويَّ المسؤولية، لكن اتضح لي أن كلًّا منهما قد غادر البيت أيضًا وسهر بطريقته الخاصة، شككنا في صديق لأخي الأصغر رأيناه بالأمس، وبحثنا عن تليفون أخي لنكلمه منه نسأله عن السيارة، غير أن التليفون اختفى، فطلبت رقمه من جهازي وإذا بالصديق يرد، هنا تأكدنا تقريبا من أنه هو السارق، ولما سألته عن السيارة أغلق الهاتف بهدوء في استهانة واضحة.

أخذت أتشاجر مع أخويَّ وأُلقي باللائمة عليهما، وهما لا يملكان ردًّا مناسبًا على اتهامهما بالتقصير، وفي الحقيقة فإني قد لمحت في نظرتهما لي اتهامًا صامتًا لم يقدرا على الإفصاح عنه، وكنت في داخل نفسي أعلم أن تقصيري أكبر من تقصيرهما معًا؛ لأنني عندما وصلت بالأمس كان مفتاح السيارة مفقودًا، وذلك الصديق موجود، فذهبت إلى السينما بالتاكسي، وكأن شيئًا لم يكن.

كان لومهما معًا بالنسبة لي أهون على من لوم نفسي لأنني الأخ الأكبر، وأخذت أسير في الشارع متألـمًا، بأننا لم نستطع معًا الحفاظ على السيارة، القابعة هنا منذ سنين الشباب الأولى، وفكرت بأن أمي لو كانت موجودة ما كان ضاع ما ضاع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٤

كان آخر عيد أمٍّ نقضيه سويًّا، في ذلك اليوم كانت معي بالمنزل بالقاهرة، وكنت قد أبقيتها الستة أشهر الأخيرة من رحلتها على الأرض معي، للعلاج وإصلاح الأعطاب المختلفة، فبدأنا بالقلب، وتم عمل رسم قلب بالمجهود، ثم ذهبنا به إلى الدكتور، وفي نهاية تلك الجلسة كتب لها الروشتة، كانت بها أدوية كثيرة، منها ما هو في الصباح ومنها ما هو في المساء، وقبل الأكل وبعده، وآخر في حالات الطوارئ، بان على أمي الارتباك مخافة الخطأ، فسألته ببساطة:

- طب وأنا حأفضل آخد الأدوية دي علطول علطول؟

كانت في الرابعة والثمانين، وابتسم الدكتور وهو يرد عليها:

- أيوه علطول علطول.

كانت في شهورها الأخيرة على كل حال، وهو كان يعلم، أنا لم أكن أعلم، لأني بعد دكتور القلب أو قبله كنت قد طفت بها على بقية الأطباء نجري التحاليل ونضبط السكر والأملاح وخلافه، وعندما انتهيت من كل هذا خلت أني فعلت كل شيء لتبقى فستبقى، ربما خمس سنوات على الأقل إلى أن تقارب التسعين، وقلت في نفسي إني سأحزن بالتأكيد أقل إذا ماتت في التسعين؛ لأنه سيكون حينئذٍ موتًا متوقعًا، ولذلك كان اندهاشي عظيمًا عندما أخبرني أخي بعدها بشهرين فقط أنها ماتت.

ربما قبل ذلك بعام أو عام ونصف كنت في زيارة للإسكندرية، وكان كارت البنك لديها منتهيًا، الأمر اللازم لكي تقبض المعاش، أخذتها معي وذهبنا للبنك في الصباح، وأنهينا الإجراءات ربما في نفْس اليوم، ثم ونحن نسير خارجين عبر البهو، قالت:

- أفتكر ده حيبقى آخر كارت.

قلت لها بعناد وبصوت فيه شيء من الحدة:

- لا لسه حيبقى فيه كارت واحد كمان.

كانت تقول ذلك وهي مبتسمة، كعادتها، خاصة عندما تجيء سيرة الموت، وأنا لم أكن أحب فتح هذه السيرة معها أبدًا، سيرة موتها هي بالذات، فقد حدث قبلها أن كنا في القاهرة وفعلتها، فقاطعتها أيضًا بشيء من الغلظة، قائلًا:

- أنا ما باحبش أتكلم في الموضوع دا.

في ذلك العيد كنت عالـمًا بالتأكيد أنها لا تحتاج أي شيء، وأنا لم أجد هدية أقدمها لها أفضل من بقائي معها طوال اليوم، وأن أعزمها على الغداء في مكان جديد بالنسبة إليها.

فعلت ذلك وأخذتها في مطعم بالمهندسين، وهناك رحبوا بها جميعًا، وأخذ كل فرد يتبارى في تقديم الود، من الجارسون إلى المدير، لم يكن أحد بحاجة إلى السؤال لماذا أنتما معًا هنا اليوم، فكانت كل طلباتها مجابة بترحاب وتفانٍ.

- كل سنة وانتي طيبة يا ست الكل.

قالها مدير المطعم ونحن ننزل درجتَي السلم البسيط المؤدي إلى الشارع، وكانت لم تستطع إكمال وجبتها من المشويات، فأكلت أقل من نصفها، وناديت للجارسون ورآني قد أنهيت طبقي، فنظر إلى طبقها وقبل أن أتكلم، قال لي:

- اسمح لي نلفُّ الباقي بقي لست الحبايب.

أومأت له بالإيجاب وتركت بقشيشًا يناسب هذه الحفاوة، وغاردنا المطعم مودعين بالدعوات والأمنيات، بينما مدير المكان يفتح لي الباب، لأني كنت أسندها في المشي مخافة التعثر.

بعدها بشهر سافرت إلى الإسكندرية كي تحضر زفاف أخي، وأنا لما ذهبت قبل موعد الزفاف مباشرة عرفت أنها وقعت على الأرض في البيت وأصيبت بالرضوض في وجهها، لم يخبرني أحدٌ وقتها مخافة عليَّ من الانزعاج وما دام هناك مَن يتولى الأمر، ثم حضرنا الزفاف السعيد، وسافرتُ عائدًا إلى القاهرة لعملي، كان الزفاف في منتصف مايو، فكيف يأتيني خبر سفرها الدائم في الرابع عشر من يونية؟ ألم ألم نكن نشعر؟ أنا شخصيًّا لم أتوقع شيئًا كهذا، وكنا نخطط معًا لبقائها معي في القاهرة بمجرد أن تنتهي حدة الصيف، ربما لم تتوقع هي الأخرى؟

مرت أربع سنوات حتى الآن، واجتزت كل الحالات التي مررت بها منذ رحيلها، وصرت أذكرها بشيء به بعض الاعتيادية، وبقدر لا بأس به من قبول الواقع الجديد، بل وأذكر النكات التي كانت تجمعنا معًا، أو بعض صفاتها التي كنت أتندر عليها في حضورها، كرغبتها الدائمة في ترتيب قنوات التليفزيون بدءًا من القناة الأولى ثم الثانية وهكذا، وإلا تشعر أن الأمر غير مرتب، أو عندما أكون في وسط مكالمة تليفونية، وتريد تلقيني رسالة حازمة إلى الطرف الآخر دون أن يعرف أنها موجودة، كأن الكلام صادر مني، فتخبرنى بصوت تظن أنه هامس، وأكون أنا متوقعًا فأضم كف يدي الخالية على الموبايل كي

أضعف الصوت، أو عندما تحفزني على سماع كلامها وإطاعة الأوامر مذكرة إياي بالحديث النبوي وهى تضحك: «أمك ثم أمك ثم أمك».

في عيد الأم اليوم لست حزينًا بشكل خاص، لكنني فقط بي حنين إلى المطعم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥

رأيت نفسي في شقة جدتي التي آلت إليَّ بعد وفاة أفراد الأسرة تباعًا، والتي قمت بتأجيرها لعدة أعوام قبل أن أتمكن من التخلص منها بالبيع.

كان وجودي غريبًا، فالشقة أولًا في حوزة المشتري، ثم إنها خالية من أي شيء يمكن أن يعين على المعيشة، كسخان المياه الذي أخذته معي قبل الرحيل، وحوض المطبخ الإيطالي الذي قمت بخلعه أيضًا، وبالطبع دواليب المطبخ نفسه.

لقد ولدت وتربيت في هذه الشقة، عندما أضافوني منذ ما يزيد على الخمسين عامًا إلى سجلات المواليد الذين تزخر بهم الحياة، وكانت جدتي هي ربة العائلة الكبيرة، التي حوت خالاتي وأمي.

انتقل أبي إلى الإسكندرية للعمل وانتقلت معه أمي، وكثيرا ما واجها صعوبات في العناية بي كطفل نظرًا لواجبات العمل، فكانت أمي تأتي بي إلى القاهرة وتتركني في رعاية جدتي المحبة.

لم أشعر يومًا بأنه بيت غريب، أو أنني مجرد ضيف مرحب به، بل إنني صاحب البيت المدلل، تفننت خالاتي في العناية بي وتدليلي، فهذه تقوم بشؤون الاستحمام، تسخن المياه على وابور الجاز داخل الحمام في حلة متوسطة، وتضع حلة أكبر حجمًا منها داخل البانيو تحت الحنفية، لكي تقوم بعد ذلك بخلط المياه الساخنة بالباردة، فتحصل على مياه بدرجة حرارة متوسطة، وتقوم بعدها بدعك جسدي الصغير بليفة خشنة، ولا أكف أنا عن التذمر من قوة الدعك، ثم تكون المكافأة في النهاية والحمام مليء بالبخار، أن تصب الماء الساخن الباقي في الحلة كله على جسدي فأتمتع به.

كانت هذه طنط توحة، أما جدتي فكانت تتفنن في الطبيخ الصابح كل يوم، لم تكن لدى أسرتي ثلاجة، فكانت جدتي تضع بواقي الأكل مع مغرب كل يوم في البلكونة البحرية في حلل أصغر تتناسب مع الكميات المتبقية، تضعهم بجوار القلتين المغطتين بغطائين من البلاستيك، أحدهما أحمر والثاني أزرق.

أكثر من ثلاثين عامًا مرت منذ أن شممت روائح المطبخ لآخر مرة من يد جدتي، فلقد ماتت عام ١٩٨٢ في المطبخ نفسه، نزلت تشتري لوازم البيت وهي في الثمانين ربما، وصعدت لتطبخ، ثم نادت على خالتي توحة من المطبخ حيث وقعت على الأرض، وأسلمت الروح.

كان لديها مطحنة بُن، وكان خالي يحب القهوة، فكانت تشتري البن الخام وتطحنه، وأساعدها كثيرًا بلا تذمر، وبالطبع لم يكن مسموحًا لي بشرب القهوة، أما الملوخية فكانت أكلتي المفضلة، وأكلة أمي المفضلة أيضًا،

تعودت أن أضع العيش الناشف أولًا في الطبق، ثم أضع عليه الملوخية، وأنتظر قليلًا، ثم أضع الأرز، وفوقه الصلصة أو كما كنا نسميها «الدمعة»، وفي وسط الطبق قطعة أو قطعتان من اللحم الأحمر.

تم عقد قران أبي وأمي في هذه الشقة، وكم حوت من الناس في الأعياد والمناسبات، لكن بمرور الزمن مات الناس واحدًا بعد الآخر، مات الرجال أولًا، خالي وأبي ثم أزواج خالاتي، ثم بدأت خالاتي أيضًا في الرحيل والانزواء خلف هذا الساتر اللا مرئي الذي يختلف الناس في تسميته، فبينما يسميه المؤمنون البرزخ يسميه اللا دينيون العدم، في الحالتين هو اختفاء، لكنه مؤقت هنا ودائم هناك.

ظلت توحة بعد وفاة جدتي مواظبة على إقامة الولائم في المناسبات الكبرى وأحيانًا من دونها، فهي تدعو ابن خالتى للغداء، فتتعدد أصناف الطعام إلى حد أن نظل نأكل منه أسبوعًا، من غير أن يفقد طعمه الجميل.

ثم مرضت فترة طويلة، وأقامت في البيت ثم في المستشفى، إلى أن ماتت منذ سنوات قليلة، وكنت أثناء إقامتها في المستشفى قد قمت بتأجير الشقة؛ لكي نتعاون –نحن أفراد الأسرة المتبقيين-في دفع التكاليف الباهظة والآخذة في الارتفاع.

أخذت أنتقي المستأجرين، فمرة يحضر لي شاب إفريقي ومعه فتاة يقول إنها أخته، فأرفضه، ومرة يحضر لي أحد السماسرة امرأة أردنية تقول إنها ترغب في تأجير الشقة اليوم لكي يتمكن أخوها القادم من الخارج صباح الغد من الإقامة فيها فورًا، وإنها ترغب في أن تدفع المطلوب حالًا لكي تبدأ في تنظيف الشقة منذ المساء. لم أصدقها، أخبرتني غريزتي بأنها كاذبة تمامًا، فهي قد بدأت في البداية الكلام باللهجة المصرية التي تتقنها، لكن على الرغم من ذلك استطعت بعد دقيقتين على الأكثر سماع اللكنة الغريبة، في حرف أو في جزء من حرف، وأدركت أنها ليست مصرية، ولمحت هي بذكائها ما بان على وجهي، فأخبرتني بأنها أردنية تقيم بالقاهرة منذ سنوات بعيدة، ولم يستطع أي شيء قالته بعد ذلك أن يجعلني أصدقها وأوافق على تأجير الشقة لها.

اعتذرت بعذر بدا واهيًا، ولم أهتم برد فعلها على الإطلاق، وبدأت أشعر بأن هذه الشقة ابنتي من دم ولحم، وطال انتظاري إلى أن حصلت على الزبون المناسب، شاب هندي متزوج حديثا ويعمل في إحدى مصانع الصابون والشامبو بالمدن الصناعية، لم يكن عرضه أفضل عرض، ومع ذلك كان شعوري بالراحة عظيمًا وأنا أزوره من وقت لآخر عندما يعزمني على الغداء في المناسبات، أو عند حضور أبيه وأمه من الهند، أو حماه وحماته.

انقضت ثلاث سنوات منذ توقيعنا معًا لأول عقد إيجار، ماتت خلالهم خالتي، وكان الشارع قد تغير تدريجيًّا على مدى السنين التي عشتها، لكنه أخذ المنحنى الحاد في التغيير من بعد الثورة.

في طفولتي كان هناك «عم عبود» الفكهانى، الذي يغسل الشارع أمامه مرتين في اليوم بالخرطوم، وعم على الذي علق لافتة محله كما يلي «أبو سمرة ملك البيرة»، وعم أحمد اللبان الذي غير نشاطه إلى بيع الجرائد وصار يجلس على الناصية، وصرت أنادي عليه بأعلى صوت ليحضر لي الجرائد ويضعها في السَّبَت، إلى أن تحاسبه جدتي عندما تنزل إلى السوق.

أما القهوة التي على الرصيف المقابل، فكانت دائمة الإذاعة لأغاني أم كلثوم، وكانت أكثر أغنية سمعتها في حياتي من راديو تلك القهوة «انت عمري»، وكنت دائمًا أخرج رأسي من «درابزين» البلكونة، كأني أقرب أذني أكثر بقدر الإمكان من راديو القهوة، إلى أن جاء عام كدت أختنق بعد إخراج رأسي وعدم استطاعتي إدخاله ثانية.

عانيت في التسعينيات من التغير الذي حدث في الشارع، فقد اختفى جيراننا الموظفون، وصرت أمشي في الشارع صباحًا متجهًا إلى عملي، فلا أجد سوايَ يرتدي البذلة والكرافتة، مشيعًا بنظرات التهيب من رواد القهوة، مات الجيران إذنْ وتغيروا، أتى أصحاب المحلات ليصبحوا الجيران الجدد، وبدأت أنا أشعر بالغربة في هذا الشارع الذي كان جميلًا، إلى أن أتت الثورة فصارت الفاترينات في الشارع وعلى الرصيف.

صرت متناغمًا مع وضعي الجديد بانتقالي إلى شقة أخرى مجاورة في نفس الحي الذي نشأت فيه، محصلًا الإيجار في كل شهر من شقة جدتي، غير قادر على مناقشة فكرة بيع الشقة، مع أن الفكرة باتت عملية، خاصة بعد وفاة خالتي.

إلى أن ماتت أمي منذ أقل من عامين. هنا وجدت سهولة أكبر في بيعها، صحيح أنني كنت أناقش الفكرة معها قبل ذلك ولم تكن تعترض، لكنَّ فرقًا شاسعًا هناك بين اتخاذ القرار وتنفيذه.

أخرجت المستأجر وبعتها، وقل وجودي في الشارع إلى أقصى حد، لم يعد هناك أحدٌ أسلم عليه إلا ذلك الفكهاني الجديد نسبيًّا الذي يضع بضعة أقفاص على الرصيف، وأنا أسلم عليه آخر مرة أدركت أنه لا أحد في الشارع يعرفني سواه، وأني صرت غريبًا عن مكان ميلادي، خرجت وأنا أردد لنفسي هذه الكلمة: غريب.

بالأمس رأيت نفسي داخلها، وقد أجرتها من المشتري الذي بعته إياها، تحججت باحتياجي إلى مخزن أو مكتب، لا أذكر، وأقمت بالداخل، كان الجو باردًا، إلا أني سرعان ما رأيت العفش يعود تدريجيًّا، وكانت الإضاءة خافتة، لكني استطعت رؤية الثلاجة وقد عادت إلى مكانها، وكذلك البوتاجاز وسخَّان الحمَّام، لم أكن محتاجًا إلى النزول لشراء أطعمة فقد كانت الثلاجة مليئة، وكان معي من النقود ما يكفي لشراء أطعمة جديدة، طوال المدة الباقية لي على قيد الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٦

بدت لي إنها جدتي عندما دخلت المطبخ، حيث رأيتها من جانب وجهها، وهي تذهب مباشرة إلى «النملية» المعلقة إلى الحائط فتفتحها، ثم لا تجد ما تريده فتغلقها، وتستدير إلى الجانب المقابل لتفتح النملية الأخرى بجوار الحوض، غير إن صحتها لا تساعدها فتتعثر وتكاد تقع.

كنت أعلم إنها تبحث عن شيء تطهوه لنا، لكنها لما كانت غائبة منذ أكثر من ثلاثين عامًا ففكرت أنها لا بد كبرت كثيرًا، وابتسمت في داخلي لأنها لا تتغير، فما إن تعود حتى تدخل المطبخ، تقدمت نحوها وأمسكت بخصرها أسندها، بينما استندت هي على الحوض، احتضنتها تقريبًا وقبَّلتها قُبلةً مفعمةً في رأسها من الخلف، كان شعرها ملفوفًا كالعادة على هيئة «كحكة» بينما اختلط فيه اللونان الأبيض والأسود.

وإذ نظرت إلى النملية المعلقة، وجدتها قد مالت هي الأخرى، بل إن مسمار الحائط كاد يخرج من مساره، تركت جدتي لبرهة خاطفة ثبتت فيها النملية ثم عدت إليها، أمسكتها ثانية وسارت بجانبي وذراعي لففته حول خصرها، حتى وصلنا إلى باب المطبخ، والذي ما إن اجتزناه، حتى بان لي وجهها كاملًا، فوجدتها خالتي التي غابت منذ عامين، ولم يكن لديَّ مانع من رؤية خالتي أيضًا، بل كنت فرحًا لأني رأيت الاثنتين في جسد واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧

كيف اصطفت بيوتنا جميعًا بجانب بعضها البعض فكوَّنت معًا بيتًا واحدًا هائل الضخامة والاتساع على هذا النحو؟

احتوى البيت الماثل أمامي على بيت جدتي بالقاهرة، وبيت أبي وفيلا خالتي في الإسكندرية، كلًّا في مكان واحد، فإذا تجولت هنا أرى الفيلا، وإذا مشيت إلى الناحية الأخرى أرى بيت أبي ثم بيت جدتي، لكنَّ أحدًا لم يكن هناك، حيث بدا البيت الجديد موحشًا للغاية، موغلًا في القدم، تفوح منه رائحة الرطوبة من كل ركن، بالإضافة إلى انقطاع التيار الكهربائي الدائم، وتكسر زجاج النوافذ بل وخشب بعض الشبابيك، لكن لم يكن هذا كل شيء.

أخبرني أخي بأننا يجب أن نغادر هذا البيت بسرعة قبل أن ينهار، وأنا قلت له بأن هذا بيت العائلة ولا يمكن أن أتركه. كانت خيوط العنكبوت تلتف حول كل شيء تقريبًا، أرجل الكراسي والمناضد، نجف السقف، ترابزين السلم الكبير، وقد تحول لون كل شيء إلى اللون البني المتفحم، كأن حريقًا شبَّ يومًا ما في هذا المبنى، وكان ضوء القمر ينتشر في أرجاء البيت، عاكسًا خيالات مرعبة عند انكساره على أرجل الكراسي، وكثيرًا ما كنت أرى الأشباح وهي تجرى، وعندما أقاوم خوفي أحيانًا وأمد عنقى إلى داخل الغرفة التي رأيت الشبح يدخلها لا أرى أحدًا.

قال لي أخي بأن لا فائدة على الإطلاق تُرجى وراء إصراري على المكوث بالمنزل، وتمسكي بأنه البيت الذي يجب أن نقيم به، لافتا نظري برفق إلى أن الجميع قد غادر هذا المكان بشكل نهائي، تباعًا خلال السنوات الفائتة، وأنه من رابع المستحيلات أن يعود أحد، وعليه فالمغادرة واجبة.

تزايدت الأشباح بشكل مرهق للأعصاب، وبدلًا من جريها منا واختبائها وراء قطع الأثاث بدأت تمشي بشكل أكثر ثقة عن ذي قبل فتحطم أعصابنا، ومما زاد الطين بلةً، أن السقالات الموضوعة لتسند جدران البيت العتيق قد بدأت تتهاوى، واحدًا وراء الآخر، فتثير الغبار وتمنع الرؤية، الأمر الذي حدا بأخي أن يتخذ قرارًا بلا مناقشة، فدفعني دفعًا إلى المخرج الضيق الوحيد، والمتبقى بعد بدء انهيار جميع أجزاء المنزل جزءًا وراء الآخر، لكننا عندما وصلنا إلى المخرج دفعته أمامي لأكون بعده، فخرج واستدار ينظر إلى يستحثني على اللحاق به، وعندئذٍ أخبرته بأني أردت فقط إنقاذه، أما أنا فلن أستطيع الخروج أبدًا من بيتي، وإنهاء للحوار حركت بيدي بعض السقالات بيننا فانهارت ومنعت الرؤية فمضيت أنا إلى الداخل أبحث عن العائلة لنصلح البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

١٨

في فيلتنا السعيدة أقف وحيدًا، وقد غمرني الاطمئنان والشوق لرؤية الأحباب، ثم أتذكر أن العمر مر بي، وأنه ما من أحد في البيت غيري، عند ذلك يحل الجزع محل الطمأنينة، فأختار أن أصرخ لأعبِّر عما يجيش في صدري، ثم أتذكر المواقف المماثلة وكيف أنه ما من صوت يخرج أبدًا، وقبل أن يتسلل إليَّ اليأس إلى قلبي أفكر في مواجهة جديدة لم أجربها من قبل، وأقرر أن أظل أصرخ غير عابئ ما إذا كان صوتي يخرج أو لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩

في قرية بدت كقُرى الجنوب كانوا جميعًا يقفون على الجانب الآخر من النهر الوسيع، أرضهم خضراء ظليلة، أما أنا فقد كنت أقف على الجانب الصحراوي، ليس حولي على مرمى البصر إلا الرمال الساخنة، وبيت ريفي قديم أكلح لونه من أثر الشمس.

أشاروا لي جميعًا بتحية حارة، فترحمت على الأيام التي كانوا فيها جميعًا يسكنون البيت، وتذكرت لما رحلوا واحدًا بعد الآخر إلى الجانب الآخر من النهر، كل في قارب صغير يخصه وحده، كانت قواربهم جميعًا مركونة جنب الأشجار، ثم حانت مني نظرة إلى شاطئي، فوجدت أن لم يعد فيه إلا قارب أخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠

والآن، فإني أراني مع زوج خالتي واقفين في الطرقة، أمام السلك الخشبي العملاق، ذلك الذي يصل الدور الأرضي بالسطوح، مرورًا بنا.

وإذ علمت أنه قد وقع عقد البيع، نصحته بإخلاء الفيلا من المقتنيات، قبل تسليمها للمشتري، وأشرت إلى السلم الفاخر قائلًا: - إنه يساوي عشرات الألوف بسعر اليوم.

فقال لي:

- نعم ولكنه من هيكل الفيلا ذاتها ولا يمكن بيعه.

حينئذٍ أخذت أشير له إلى التحف الموضوعة في كل مكان، ففي السقف قد علقت الثريات المذهبة، وعلى الحوائط كثرت اللوحات الزيتية، وكنت كلما أشير إلى ناحية ألاحظ الجديد مما لم أره من قبل، أسعدني ذلك، وأسعدني أكثر أن رأيت خالتي قد اقتربت، وقلت في نفسي إن هذا سيجنبني الإحراج، فيما لو ظن زوج خالتي أني أريد بعض المنافع، الأمر الذي حدث عندما سألني ماذا أريد أن آخذ لنفسي من المقتنيات، وقد أحسنت الإجابة، فأشرت له إلى مجموعة من الجرائد القديمة، وقلت له إنها ستذكرني بالفيلا وهذا كل ما أريده، وإذ ذاك خطر لي خاطر أجمل، وهو أننا ما دمنا صرنا معًا ثانيةً، فلم لا نرجع في عقد البيع ونتجنب الانتقال؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢١

أما هو فقد كان صديقي الحميم المرحوم مصطفى هاشم، وقد اشترى شقة في الدور الأول بعمارة جدتي، تلك التي كنا نقطن فيها بالدور الخامس، وحدث أني بعت الشقة بعدما آلت إليَّ بعد وفاة الجميع.

وذهبت قبل صعودي إليه إلى محل بيع الشاي على الناصية، واشتريت كوبين من الشاي الكشري، وكوبين آخرين أوصيت البائع بهما، على أن يحضرهما في أكواب فاخرة من النوع الذي له يد يمسك بها المرء.

لمن كانت الأكواب والكل غادر؟

ولماذا جاء مصطفى من بيته في حي كليوباترا بالإسكندرية ليقيم عندنا؟

هل بدل الشقة؟

أم باع القديمة واشترى عندنا؟

ولماذا يقيم وحده؟

وهل كانت أمه بالداخل، أم أنها قد ماتت؟

لقد أزحت جانبًا كل هذه الأسئلة لأحظى برؤيته كما في الماضي، وفتحت شيش البلكونة الموارب بعد صعود السلم القصير، كان نائمًا، فهمست إليه فقام يدعوني، وجلسنا نتسامر، لم أسأله عن شيء مما جال في خاطري، إلا أن الكوبين الفاخرين قد جاءا، وهو سألني لِمَن هذا الشاي؟ وأنا حرت في الإجابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٢

رأيت نفسي أيام الشباب في العجمي، مجتمعًا بعائلتي في إجازة قصيرة أوشكت على الانتهاء، وقد جهزت نفسي للرحيل في اليوم التالي تاركًا إياهم، وفي الصباح قدت سيارتي مبكرًا إلى القاهرة للحاق بالعمل، إلا أنني فوجئت بمجرد خروجي إلى الطريق بأنني تأخرت، وأنه لم يبق إلا ساعة، فعرفت أنني لن ألحق بميعادي مهما أسرعت، فعدت أدراجي إلى العجمي، وبدلت ملابسي ثانية قبل أن أفاجئ عائلتي بوجودي، الذين لدهشتهم لم يهشوا لي، بل ولاموني على تفويتي العمل، فقلت لهم إن لديَّ رصيدًا من الإجازات، وقعدت لا أفعل شيئًا سوى النظر إليهم، ثم جاء الصباح وفتحت عيني، فترحمت على الماضي البعيد، وأخذت أجتر مشاهده الحلوة في طريقي الصباحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٣

لقد حدثني رغم موته، وقال لي إن مكاني ليس في الفيلا، لكنني ما دمت مصرًّا على سكنى زيزينيا فعليَّ أن أبحث في الفلل المجاورة، ثم رشح لي الفيلا التي تقع على الناصية فسألت عن سعرها، ولما لم يكن معي المبلغ المطلوب فقد سألت أحد أصدقائي المقربين المساعدة.

كان الاتفاق أن يشتريها صديقي وأقوم بالسداد بالتقسيط، أو أن يقيم فيها معي حتى استيفاء المبلغ، فذهبت إلى الفيلا لمعاينتها، وأخذت أراقب باطمئنان كمَّ الزراعات الوفير، من شجر زينة وشجر فاكهة، كما كان كشك الحراسة بحالة لا بأس بها، وفكرت في أنني يجب أن أسرع بعملية السداد، فقررت أن أبيع سيارتي وشقتي وكل ممتلكاتي الأخرى مراعاة لعدم الإثقال على الصديق.

وحانت مني –رغمًا عني- التفاتة إلى فيلتنا، وراعني كيف أن زوج خالتي يرفض إقامتي معه، ودهشت كيف وافقته بهذه السهولة، فذهبت إليه مصممًا على الحصول على تفسير، ولما اقتربت راعتني الرائحة المنبعثة من المكان، كانت رائحة غريبة لا تشبه رائحتنا في الماضي، وما إن رآني الرجل حتى خرج إليَّ دافعًا صدري بحنو، قال لي إن فيلتي الجديدة حلوة، وينبغي عليَّ أن أخلص في العناية بها دون التفات إلى الماضي، وأنه شخصيًّا كان ليسكن بها لو كان على قيد الحياة، أما الآن فهو مقيم في فيلتنا وحده، لكن لا يسعني الإقامة معه الآن، ولما سألته إن كان مستحيلًا عليَّ دخولها، قال لا، ولكن فقط عندما يحين الوقت المناسب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٤

لم تكن العزومة دعوة إلى طعام، ولكنها كانت جمعًا احتفاليًّا لا مناسبة له، أو ربما لا أتذكر المناسبة.

وقد انتابتني نوبة كرم من نشوة اللقاء، فطلبت سمكًا لكل الموجودين في الحديقة، وإذ جاءت الفاتورة هالني السعر، ثمانية آلاف جنيه بالتمام.

فتحت الورق المفضض المغلف للسمك لأتبين الأنواع، وما إذا كانت هي المذكورة في الفاتورة، كان السمك فاخرًا بالفعل، كبيرة أحجامه إلى حدٍّ لا يصدق، وبجواره أكياس أخرى للسلطات، وثالثة للعيش والأرز، إلى جانب الجمبري الذي كانت أحجامه مضاعفة، كأنه ثعابين صغيرة.

لم يشفع كل هذا للفاتورة التي كانت فوق الاحتمال، وضعت يدي في جيبي وقد قررت الدفع بلا مناقشة، لكن النقود كانت قد ذهبت إلى حيث لا أعلم، وعند هذا الحد طلبت معاونة صديقي، الذي أصر على التدقيق في الفاتورة أولا، فقد كان سعر الصنف لا يزيد على ثلاثمائة جنيه، فكيف يكون المجموع ثمانية آلاف؟

ولم تكن الفاتورة مقنعةً بالفعل، إلا أنها عند جمع المفردات كانت تصل إلى الرقم السابق ذكره، انتابني اليأس، فأخبرت صديقي بأن يدفع عني الفاتورة وسأعطيه النقود في الغد، إلا أنه بدا مشفقًا عليَّ، وأصرَّ على اختراع حل ينقذني من الورطة، فأخبرني بأنه سيطلب من كل الموجودين المساهمة في ثمن الوجبة انطلاقا من أن العزومة لم تكن على الغذاء، ولكني شعرت بالعار، فهم لم يطلبوها على أي حال، فكيف يمكن مطالبتهم بشيء لم يطلبوه؟

وخلال مجادلتنا شعرت بالحزن من أن تشغلنا ورطة سخيفة عن الاستمتاع باليوم، إلا أنني أيقنت أني لن أكون سعيدًا أبدًا إذا دفع الحاضرون الفاتورة، كانت غلطتي ولا بد لي أن أتحملها، ولكني، وبنفس القدر من تفضيل احترام الذات، انتابتني الرغبة في المغادرة، لم يسعده هذا الحل، ولم يسعدني أنا أيضًا، ولكنه كان مع ذلك، بالنسبة لي على الأقل، أقل الحلول إيلامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٥

رأيت نفسي في سوق زنانيري أسير قبيل الفجر، وقد نزلت مبكرًا من الفندق الشعبي الذي أقيم فيه لشراء الإفطار، ذكرني السوق بصديقي المرحوم مصطفى إذ كان محل أبيه يقع فيه، ثم إن بيته كان قريبًا، وقد وقر في قلبي أنه عائش، فقررت زيارته، لكن لما طلعت الشمس راح شعوري هذا وبانت حقيقة موته كصباح حزين، ورغم ذلك فقد مررت على بيته للتأكد، فوجدت الشارع كله مقفرًا ليس به بشر، والبيوت قد تحول لونها إلى رمادي كالح، وما لبثت الشمس أن ضعفت وصفرت الرياح وظهرت نباتات صبار في كل مكان أعاقت حركتي، فعدت أدراجي إلى الفندق كارهًا ضوء النهار، راغبًا في نوم فوري طويل، ولم يكن ذلك النوم استسلامًا على أي وجهٍ من الوجوه، فقد ساورني الشك ثانية في أن يكون موته إشاعةً كبرى، وإلا فكيف أسمع صوته يدوى في أذنى وهو يضحك؟ وكنت قد وصلت إلى فراشي، فعقدت العزم على أن آخذ استراحة على أن أعود للبحث عنه في المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٦

رأيت خالتي كما كانت قبل أن تغادرنا، شعلة من نشاط، وقد قامت لتنظف أرضية الصالة الفسيحة في الفيلا، تلك التي اشتريتها بعد وفاتها، مدت يديها تحت الحوض وعبثت قليلًا، فانهمر سائل أصفر كثيف القوام، وهي تركته وذهبت إلى الجانب الآخر من البيت، مشيت وراءها وأخذت أسألها: أهذا منظف أم اتساخ ينبغي على إزالته، وهي تجيب إجابات مبهمة، لم أفهم منها شيئًا وتملكني الغيظ.

رجعت إلى حيث السائل وفتحت الباب الذي يفصلنا عن الفيلا المجاورة، فوجدت بعض التسرب، أخذت أزيحه بقدمي الحافية إلى حيث أرض الصالة منعًا لشكوى الجار، وقد تبدد فرحي بلقياها بعد غياب، وحل محله ضيقي بسيطرتها المستمرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٧

أقمت في بيت خالتي بالدقي منذ زمن بعيد، واستعملت غرفة نومها، فوضعت في دولابها ملابسي، ثم دار العمر وتغيرت الأحوال.

بالأمس رأيتني معها في البيت، ومعنا خالتي الكبيرة المتوفاة، وأمرتني الأخيرة أن أذهب إلى البلكونة لأتفقد ملابسها الداخلية المنشورة على الحبل؛ لأنها تظن أنها لم تعلقها على الوجه الأكمل، فربما هي مطوية بعض أجزائها، أو أنها غير مثبتة جيدًا بالمشبك، فتخاف عليها من الوقوع.

نفذت ما طلبته مني، وعدت فأخبرتها أن كل شيء على ما يرام، وأنه لا يوجد ما يستوجب التعديل، عند ذلك طلبت مني خالتي صاحبة الشقة نفس الطلب، وأنا استجبت فذهبت مرة أخرى، ومرة أخرى كان كل شيء على ما يرام.

تذكرت حينئذ ملابسي القديمة، تلك التي مر عليها عشرون عامًا، ورأيت أن أبحث عنها في الدولاب، فاستأذنت خالتي، وفتحت درفة الدولاب نصف فتحة بسبب الكراكيب المحيطة، حتى إنني استطعتُ -بالكاد- أن أدخل يدي اليُمنى ورأسي لأرى ما بالداخل، فلم أجد إلا «بلوفر» أو بلوفرين بان عليهما القدم وأكلتهما العتة، كان منظرهما بائسًا وأنا ألقي بهما واحدًا بعد الآخر على السرير، وسألتني خالتي مندهشة فيما كنت لا أزال أرغب في ارتدائهما، فأجبتها بالإيجاب، غير أني لم أكن صادقًا، ولذلك لم أستطع أن أنظر في عينيها وقت الإجابة، وكنت أعرف بحدسي لماذا تقاوم خروجهما من هذا المكان، فقد كانت ترغب في الاحتفاظ بهما كذكرى، أما أنا فكل ما كنت أرغب فيه هو التخلص منهما نهائيًّا، ولو بإلقائهما في الشارع، أو بحرقهما في مكان فسيح، بحيث لا أراهما أبدًا ثانيةً، ولا أن أحتاج أبدًا إلى التخلُّص منهما بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٨

رأيتُ نفسي في فيلا زيزينيا، والموسيقى من حولي في كل مكان، خارجًا من حجرة نومي راقصًا على الأنغام والإيقاع، وظللت أرقص بخفةٍ واضحةٍ في الصالة أمام التليفزيون، حتى كدت أطير مع كل قفزة.

وأمام حجرة نوم خالتي وزوجها هدأت حركتي قليلًا، وفكرت في البحث عنهما، كان الباب موصدًا والغرفة مظلمة، وخفت أن أتسبب برقصي في إزعاجهما، إلا إني تذكرت بأنهما ميتان، فأكملت الرقص غير شاعرٍ بالذنب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٩

كانت خالتاي ميتتين، غير أنهما لم تكونا تعرفان ذلك، وقد أسعدني وجودهما ثانية في بيت جدتي، فآليت على نفسي ألّا أشير إلى الأمر، ومضت الحياة بنا قليلًا، إلا إن بعض الأعمال المنزلية لم تكونا قادرتين على إنجازها، الأمر الذي استدعى مني التفسير، فشرحت لواحدة منهن بلطف أنها ميتة، وأخبرتها في رفق بسنوات مرضها الأخير، وأخفيت عنها عذابي تلك السنين وراء ابتسامة، وأخال مجهودي أثمر، فقد تعدى الخبر أذنيها وكأنها لم تكترث، وأنا لم يعد يعنيني وجودها ميتة أو على قيد الحياة، ما دامت معي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٠

دخلتْ عليَّ خالتي الحمَّام وأنا جالس، فجمدت من هول المفاجأة، كانت تحدثني في أمرٍ لا أتذكره، ثم خرجت ببساطة كأنها لم تفعل شيئًا، وقد اعتبرت هذا خطأً فاحشًا، فخرجتِ قبل أن أرتدي ملابسي وقد انفجرت بالصراخ في وجه أمي وخالتي الأخرى، ولم أبالِ باندهاشهنَّ من ثورتي المفاجئة، وطلبهن ارتدائي ملابسي قبل أن أخرج، فصفقت باب الشقة بكل ما أوتيت من قوة وصوتي آخذ في العلو، حتى بلغ صراخي الجيران الذين خرجوا يستفهمون، أما في الشارع فقد تفاقمت ثورتي، حتى بت على استعداد لضرب من يراجعني.

كان الناس مندهشين من ثورتي، وقد علموا من الجيران السبب، فقال بعضهم إن رد الفعل مبالغ فيه، وذهب البعض الآخر إلى أنني جننت أن أخرج عريانًا إلى الشارع لسبب صغير، لكني كنت قد فقدت السيطرة على نفسي، وقد عقدت العزم على عدم الرجوع إلى الشقة إلا بعد شراء ترباس كبير.

كنت أفكر في خالتي ولماذا فعلت ذلك؟ ولماذا انفجرت أنا بهذا الشكل؟ هل هذه هي القشة التي يقولون عنها؟ هل لأنها اعتادت نصحي وإرشادي على مر العمر بغير أن أستطيع أن أكون مثلها؟ إلا أنني تذكرت أنها ماتت منذ سنوات، فكيف تدخل عليَّ الحمَّام وهي ميتة؟

رجعت إلى الشقة ودخلت الحمَّام، نظرت مبتسمًا للترباس ثم ذهبت إلى الصالة، قمت بإعادة طلائها بعد الوفاة، وغيرت الألوان التي كانت عليها من البيج إلى السماوي، وأحدثت تغييرات كبيرة بالشقة، فالعفش القديم ذهب، وكتب التراث قمت بإهدائها بعد طول تردد، والمطبخ والحمَّام تم تجديدهما بالكامل، وباختصار تم محو كل أثر قديم، لكنني أتذكرها دائمًا كلما هممت بدخول الحمام، ودائمًا ما أترك الباب مفتوحًا، وعندما أراها قادمةً أبتسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣١

رأيت زوج خالتي المتوفي منذ سبعة عشر عامًا، يرقد مريضًا في المستشفى، فلم أكترث لأني لم أكن أحبه، كما أن أهله بجواره يتحملون مسؤوليته، كما تحملت مسؤولية خالاتي اللاتي توفين ووالدتي، فأصبحت حرًّا من الخوف عليهن ومن المسؤولية.

وحانت مني نظرة في الطرقات، فرأيت خالتي قبل أن تتوفى مباشرةً، كان عمرها أربعًا وثمانين سنة، وكان معنى ذلك أنها هي مَن سيتحمل رعايته، وأنا سأتحمل رعايتها، فعرفت أنني في طريقي إلى استكمال المسؤولية، وأخذت أفكر سريعًا في إعادة نظام البيت إلى ما كان عليه، كي أتمكن من التكيف مع الواقع الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٢

كان هو أبي، ببذلته الرسمية، وقد انضم إلينا بعد طول غياب، وأمام بيتنا كنت أجلس في وضع القرفصاء على الرصيف، ومعي ابنتي الطفلة. كانت تبكي. وأمام الباب مباشرة تقف أمي وإخوتي ومعهم ابن أخي الصغير.

ابن أخي في سن السابعة الآن، أما ابنتي فليس لها وجود، وأمي قد غادرت لتوها، ثم إن أبي كان أول من عبر من عائلتنا إلى الشاطئ الآخر، وأخواي كان وجودهما خفيفًا لسبب لا أعرفه، وأمي واقفة أمام باب العمارة، وعندما جاء أبي وقف بجانب أمي أول الأمر، ثم عندما رأى ابنتي تبكي على ساقي ولا أستطيع لها دفعًا، جاء إليَّ وحملها مني، هدهدها فسكنت، فنظر إليَّ مبتسمًا، وها هو يعود إلى أمي يقف بجوارها واضعًا ذراعه على كتفها، بينما يحمل ابنتي على ذراعه الآخر، وأنا نظرت إلى العائلة بكاملها، وحمدت الله أن أصبحنا عائلة كبيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٣

نظروا إليَّ جميعا وقالوا: انظر، لقد تباعدت بيننا المسافات، حتى صرنا بالكاد ذكرى، أنت تكتبنا وتتلو حياتنا، هكذا أخرجتنا.

كانوا يستندون إلى سحابة، بعضهم جالس تحت أشعة شمس خفيفة، وهواء بارد منعش من هنا وهناك، وأحدهم يقف ممسكًا بقطعة من السحاب صغيرة، يفركها بيديه فتستحيل إلى ماء يغتسل به.

في عمر واحد هم، يلهون، بينما على قطع السحاب الأخرى البعيدة تقبع عائلات أخرى، أمكنني أن أميز لهو أحدهم، كان يخلع الملابس فلا يراه أحد، ويمسحها بالسحاب فتغدو ناصعة البياض، بينما الآخر يعزف على الكمان لحن «بتبص لي كده ليه؟».

وقد قلت لهم إني حضرت فقط كي أقول إني نجحت، وهم قالوا نحن نعلم، لكنك لا بد أن تعود الآن، قبل أن يكشف غيابك أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٤

إنها إذنْ رحلة اجتمع فيها كل أصدقائي الذين عرفتهم في مراحل حياتي، زملاء العمل والجامعة ورفقاء المدرسة في آنٍ.

كان الجميع قد رتب لهذا اللقاء، والشوق يملأ الصدور في استعادة الذكريات الحلوة، وإذ اقترب الموعد أخذت أرتب حقيبتي.

لكن لم تكن الأربعة أيام التي اتفقنا عليها للرحلة كافية، فسرعان ما وجدت نفسي أرتب حقيبتي ثانية استعدادًا للعودة، فهالني كمّ الأغطية التي جلبتها معي، وحرت كيف وضعتها أول الأمر، إذ لم تكن الحقيبة أبدًا كافيةً لهذا الكم المتناثر من الأغراض، وأسقط في يدي، فلا حقيبة ثانية هناك.

وكان الحل الوحيد لكل هذا هو أن أسير حاملًا أشيائي تلك على كتفي، بجانب الحقيبة الأصلية التي ناءت بالأغطية، فخرجت منها مدلاةً إلى الأرض، وأخذت تمسح الطريق كلما أسير.

وجدت نفسي في ميدان رمسيس والزحام على أشده، غير قادر على ركوب أي مواصلة بهذا الكم من الملابس والأغطية، حتى إنني غير قادر على الإشارة بيدي لو أردت هذا.

ولم يكن هناك بدٌّ من مواصلة المشي المرهق، وسط الزحام والهواء الخانق والعوادم، وكان ما أحزنني هو أن الرحلة كانت قصيرة جدًّا، إلى حد أنها لم تكن تستأهل كل هذا العناء، كما أني لم أعد أتذكر منها أي شيء سوى ترتيب الحقيبة في الذهاب والإياب، حتى الأصدقاء سرعان ما سقطوا تباعًا من الذاكرة، حتى إني لم أعد أعرف من قابلت فيها، وأخذت أفكر ماذا لو أني لم أقم بهذه الرحلة من الأساس، أما كنت الآن في حال أفضل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٥

الحمد لله أن أموري بدأت في الاستقرار أخيرا، فقد زارني أمس فني إصلاح الغسالة، وكنت قد رأيت تسريب ماء يأتي من ناحيتها، غير أن الفحص قد أثبت أن التسريب يأتي من محبس المياه الخاص بالسخان وليس من الغسالة، على أي حال لقد كان بالغسالة اهتزاز عند الدوران والعصر فأخبرته به، عالج الأمر جزئيًّا بتعديل ارتفاعات الأرجل وانتهى الأمر، دفعت له ثمن الفحص وهو مائة وعشرون جنيهًا، وتركت له الثلاثين جنيهًا المتبقية من المائة وخمسين جنيهًا، ثم بمجرد نزوله اتصلت بالسباك، الذي أتى وأصلح الأمر بتركيب «لي» جديد للسخان ومحبس، وكانت التكلفة هذه المرة مائة وتسعين جنيهًا، فأعطيته مائتين.

نزلت ماشيًا إلى البار القريب منتعلًا حذائي الرياضي لأحتفل بإصلاح الأمور، وصلت بعد عشرين دقيقة تقريبًا، وجلست هناك إلى حوالي الساعة الحادية عشرة، ثم عدت سيرًا على الأقدام أيضًا، كنوع من مضاعفة الفائدة، إذ أمارس الرياضة وأخفض التوتر في نفس الوقت، ثم إني أتكلم مع الناس هناك.

وفي العمل لم يوبخني المدير على غيابي بالأمس، فقط أشار باسمًا إلى أنه لو غاب كل موظف فرغ إطار سيارته بالأمس فلن يحضر أحد إلى العمل، قلت له بنفس الابتسامة الودودة أنني قد غيرت الإطار بالفعل، ولكنى لا أستطيع أن أقود إلى العمل دون الإطار الاحتياطي، ولذلك اضطررت إلى التغيب لإصلاح الإطار.

قلت له أيضا أنني سأضطر لشراء إطارين جديدين في القريب العاجل، فأشار عليَّ بأن الأفضل شراء أربعة إطارات لضمان عدم الأعطال، فرددت عليه بأن هذا سيكلفني ما يزيد عن الخمسة آلاف جنيه، وهو أشار بأن الحل يكمن في التقسيط، وأنا وافقت.

من الأمور التي أسعدتني أيضًا أني تخلصت تقريبًا من جميع أقاربي بالموت، صحيح أن الأمر كان مؤلـمًا وقتها، لكن الوضع اختلف الآن حيث لا يوجد أحد لكي أحزن عليه، باستثناء حالات بسيطة من كبار السن.

يقول بعض أصدقائي أنني مشتت الذهن ومكتئب، خاصة بعد تخفيض الشركة التي أعمل بها لمرتبي، بعد تثبيتي بها بدلًا من عقدي السابق كمستشار بعقد سنوي، ولأكن صريحا فقد أتعبني هذا الأمر جدًّا في البداية، خاصة وأن الشركة قد أبلغتني بالقرار قبل ميعاد التجديد السنوي بخمسة أيام فقط، الأمر الذي اعتبرته إهانة أول الأمر، ولكني بمرور الوقت اعتدت على ذلك،

خاصة بعد أن قالوا لي إنها لم تكن مقصودة، خاصة وأن الظروف العامة لا تسمح بوجود وظائف، فما بال الأمر بالذين اقتربوا من سن التقاعد؟

لا لست مصابًا بالاكتئاب، بل لقد تكيفت مع الأوضاع التي كانت تقلقني منذ سنوات قريبة، والآن أنا أسعى –فقط- وراء المسرات الصغيرة، بدلًا من رسم أهرام من الطموحات التي لا تتحقق، مثلًا عند قرب انتهاء يوم العمل أفكر في وجبة الغداء التي سأشتريها، ثم بالفيلم الأجنبي الذي سأشاهده، أو بالرواية التي سأكمل قراءتها، وأظل أتوقع -من واقع الصفحات التي قرأتها- كيف ستمضي الأحداث، كما أن هناك أيضًا مباريات الشطرنج التي أحب أن ألعبها عبر الإنترنت، وعندما يمر اليوم أكون سعيدًا إذا لم تكن هناك خسارة معنوية أو مادية، أما في الصباح التالي، فصحيح أني أشعر بالضيق بمجرد قيامي من النوم وتذكر العمل، إلا إني أقاوم ذلك الشعور بتذكري الطعام الشهي الذي يعده البوفيه، وكوب القهوة اللذيذ الذي يعقب الإفطار، وتصفحي للأخبار العامة عبر الإنترنت، ثم انتصاف اليوم، فاقتراب موعد المغادرة، والباقي قد شرحته قبل ذلك، وهكذا يمضي اليوم، وكل يوم، من دون أي أسباب للكدر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٦

ممزق أنا لعدم معرفتي، في لحظتي الراهنة، ما إذا كنت مقبلًا على الموت، أو طافيًا في انتظار الحياة، فالماء في فمي يدخل فأقذفه، والبحر مترامي الأطراف، شاسع، بلا أي قوارب للنجاة، فهل غرقت سفينتي والقاع ينتظرني؟ أم أني كنت فيه والآن أنا عائد إلى الدنيا الرحيبة؟

ما كان يحزنني حقًّا ليس أني قد أموت، فالموت متوقع في كل حال، إن لم يكن الآن فغدًا أو بعد غد، وما كان يسعدني ليس أني قد أحيا، فالحياة مملة لم يعد فيها ما يشوق، فلا الأكل بجديد ولا الشراب، ولا السرور بالشيء الذي لا يمر، ولا الحزن بالشيء الباقي، ولا أنا بالشخص المتشوق لأي شيء.

ما كان يحزنني حقًّا، في لحظتي تلك، أن تطول، فلا أنا عائش ولا أنا ميت، وأن أظل أدفع الماء متشبثًا بالأمل، يومًا بعد يوم، فلا أنا نجوت فألهو، أو مت فأرتاح، وقد طالت اللحظة فعلًا، ومر على بدئها خمسون عامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٧

يحيرني تغير طباعي، فبعد أن أنفقت الأموال –على مدار العمر-في توسعة الشقة، إذا بي اليوم أرغب في تضييقها إلى أقل حيز ممكن، وبعد أن أضفت إلى غرفها الأبواب العديدة وفتحتها ليمر الهواء، إذا بي اليوم أريد أن أغلق الأبواب.

لقد كنت مغرمًا في بداية عمري بالأبواب، ففي كل غرفة بنيتها -ضمن مشروع التوسعة-فتحت فيها بابين، واحدًا للدخول وآخر للخروج، حتى انتهى بي الأمر، والشقة في قمة تألقها، إلى أنني لم أعد أستطيع أن أحصي عددها.

كان لكثرة عدد الأبواب عيب واحد فقط، وهو قلة الأماكن المناسبة لوضع قطع الأثاث، الأمر الذي أدى إلى أن الشقة بدت فسيحة للغاية، وجيدة التهوية، لكنها بلا استعمال تقريبًا، وأنا لم أعبأ أبدًا.

واليوم يحيرني طبعي، فما إن أجلس في الشقة حتى يزعجني منظر الباب المفتوح، فأقوم رغمًا عني كي أغلقه فيهدأ بالي، ولكن هيهات، فكلما عدت من العمل وجلست أستريح، لاحظت بابًا مفتوحًا فأقوم أغلقه، وأعود لأجلس فألاحظ بابًا آخر.

خطر لي خاطر ذات يوم، فجلبت النجار ليصنع لي أقفالا على الأبواب، طلبت منه أن يضع مفاتيحها فيها إن احتجت أن أفتح أحدها، ففعل، ولكني لما عدت في اليوم التالي من العمل لاحظت عددًا من الأبواب المفتوحة التي لم أشاهدها من قبل، فأخذت في غلقها. كل يوم أفعل هذا، كل يوم أشاهد أبوابًا جديدةً كنت قد فتحتها من قبل، فآخذ في غلقها، بينما يخطر لي خاطر فأبتسم، وهو أنني قد أنفقت حياتي ما بين فتح الأبواب وغلقها، وسؤال يجول بخاطري، هل أنا وحدي الذي فعلت هذا؟ أم أن آخرين هناك يمكن أن يشاركونني التساؤل؟ ورغبة حانية تتأرجح في النفس، بالرغبة في غلق جميع الأبواب قبل حلول الأجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٨

يومًا صحوتُ فوجدت الخراب حولي، في كل مكان، وعلى امتداد الأفق، لم أعرف إلى أين أسير فكل الاتجاهات متشابهة، أنقاض أبنية، وكبارٍ، ونهر سقطت فيه الأبراج على المراكب العائمة فأغرقتها، كما فاض جزء من الماء على المتهدمات من المناطق الواطئة.

لم أعرف سبب كل هذا، وكان في خيالي بقايا حلم منذ الأمس، به زلزال غاضب متوعد لكل شيء، أما كيف صحوت وما مصير عمارتي التي أقطن بها؟ فلا أعرف، بل لا أتذكر إن كنت نزلت منها وهي سليمة، أم فقط نجوت من الموت، وتسللت من وسط الخراب.

صرت أمشي بلا هدف، سوى أن أقابل أحدًا يحكي لي عما حدث، يوقظني من أوهامي أنني أرى الخراب، أو يؤكد لي أن ما أراه حقيقة، فيحكي لي إذن التفاصيل.

كانت ثمة معالم وسط الخراب تشير إلى ما كان، فهذا هو الكوبري الذي طالما ربط المدينة، أسير على أجزائه السليمة التي هبطت على الشوارع، وأتقافز فوق التهدمات، سرت حتى خُيل لي أنه الميدان، نعم هنا كنا نقف، وهذا هو الشارع الملتف الذي يعبر المتحف، غير أني دققت النظر مرات، فتبين لي في النهاية، أنه قد اشتبه عليَّ الأمر، وأن كل ما تخيلته غير صحيح، فلا الكوبري هو الكوبري، ولا الشارع هو الشارع ولا المتحف، ووقعت في الحيرة من جديد أين أنا.

كان المدهش في الأمر عدم وجود غيري من الأحياء، فعلى امتداد السير وسط الخراب لم أرَ أحدًا، وفي الحقيقة فإنني قد مشيت كثيرا، حتى أصابني الوهن، لكني واصلت السير بخطى أخذت تتثاقل تدريجيًّا، كنت راغبًا في العثور على أحد قبل حلول الظلام، فأين أذهب، وأين سأقيم؟ وأين الماء والطعام؟ أين ما يعينني على الحياة إلى أن أجد أحدًا!

وعلى الرغم من أنني طفتُ بالمدينة كلها، بالقصور والفيلات والعمارات، أو بالأحرى، بما تصورت أنه كان كذلك، ولم أرَ حيًّا يسعى، فإنني لم أفقد الأمل بعد.

وعلى الرغم من تعاقب الليل والنهار، وبقائي -بمعجزةٍ-طول هذه الفترة، دون أن أجد الرفيق، فإنني أُواصل المشيَ والبحث، وسط الخراب، وقد تبدل حالي من الجزع إلى الجلد، أسير كما اعتدت كل يوم، وأفكر أنني ما دمت على قيد الحياة، فليس لي اختيار سوى المشي، والبحث عن هذا الأحد، ولكن، في نفس الوقت، فإن هذا ليس معناه إيجاده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٣٩

أهداني أصدقائي في عيد ميلادي قطارًا فائق السرعة، ومدوا له القضبان في كل الأماكن التي أحبها، كي يسهل عليَّ الاستمتاع بالحياة، فيما بدا أنه تكريم نهاية المشوار.

صعدوا معي القطار، ثم أخذ أحدهم يحدثني عن مميزاته، ويشرح سبل الراحة والترفيه المتوافرين، وكان مما ذكره توفر خاصية عدم الإزعاج، ولما نظرت إليه مستفهمًا، قال إنه ليس بالقطار غيري، فيوجد التليفزيون والسينما، وكل أنواع الطعام والشراب، بالإضافة إلى حمَّام سباحة صغير دافئ، وصالة ألعاب رياضية، كما أن كل هذا يعمل بالأزرار السهلة البسيطة، دون أي تدخل بشري على الإطلاق، كان هذا الصديق آخر من نزل، وهو قد همس لي بملاحظة أخيرة، مؤداها ألَّا أنظر إلى الشبابيك التي إلى اليسار، وحسبي فقط تلك التي إلى الجهة اليمنى، ثم نزل.

كانت الشبابيك اليسرى كلها مغطاة بستائر زرقاء كثيفة، أما اليمنى فستائرها مفتوحة لكي يتمتع الجالس بجمال الطريق، وأنا قد جلست بجانب إحدى الشبابيك اليسرى، ثم أزحت جزءًا يسيرًا من الستارة لأرى، كان مبنى المحطة قائمًا كئيب المنظر كالح الألوان، ووراءه اكتظت عشش بائسة، ولا أحد هناك، أما فوق المبنى فقد علقت لافتة مكتوب عليها باللون الرمادي «المحطة الأولى».

أزحت الستائر بسرعة ونظرت إلى اليمين، كانت الحقول الزراعية ممتدة حد الأفق، ثم ما لبث القطار أن تحرك، ورحت أنا في نوم عميق لا أدري كم دام، لكنني عندما استيقظت كان القطار يجري بكامل سرعته، وإذ نظرت عبر النوافذ اليمنى لم أرَ شيئًا مفهومًا، فمن فرط السرعة كانت المناظر تتابع كالأشباح، وكل ما استطعت أن أميزه أطياف الألوان، رأيت كل الألوان من تلك النوافذ، لكن من دون أن يبين منها شيءٌ أستطيع أن أميزه، وطال الوقت حتى بدت أسأم من الرحلة، حتى إنني فقدت شهيتي للطعام والشراب، ونسيت أصدقائي الذين أتوا بي، ولم أعد أبرح مكاني إلا لقضاء الحاجة، والتي انعدمت -بطبيعة الحال- نتيجة ندرة الطعام، وطوال هذه المدة لم أرَ سائقًا للقطار يوقفه، وبدأت أعد نفسي للفرج القريب، وإذ ذاك حانت مني التفاتة إلى الستارة، فأزحتها بنفس الحرص، وأصابتنى الدهشة، فقد كان القطار واقفًا لم يتحرك، ومبنى المحطة قائمًا كما كان، واستطعت أن أميز اللافتة بوضوح «المحطة الأولى». ن أ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٤٠

كان المحيط يتقلب حاله أسرع مما يتصور أحد، فمن الهياج التام إلى صفحة الماء المنبسطة كستارة من حرير، ومن الشتاء القارص المقارب للتجمد، والرياح العاتية التي ترفع الأمواج لعشرات الأمتار، إلى الشمس الحارة والماء الرائق، الذي يمكن من خلال سطحه رؤية الأسماك الصغيرة.

وكان أن اختفى قاربي الذي معي، ولا بد أنه غرق أو تحطم بعد موجة عاتية، فصرت وحدي بلا مساعدة من مخلوق، أو جزيرة من بعيد تعطي أملًا في الوصول، أو حتى حوت كبير يخلصني مما أنا فيه، ولم يكن أمامي غير التشبث بالحياة إلى أن يحين الأجل.

رفعتني موجة هائلة حتى اقتربت من السحاب الثقيل الداكن، ثم هوت بي إلى قاع المحيط حتى لامست مؤخرتي الأرض وأنا أتخبط، بمَ كانت تفيد الملابس في الوقاية من البرد؟ لقد كنت بملابسي الداخلية وقد أخذت تتمزق مع كل موجة، وصدري العاري وظهري يرجفان من هواء الصقيع، وأنا أسائل نفسي إلى متى يستمر هذا العذاب؟ ولماذا لا أموت رغم كل ما ألاقيه؟

كانت الأصعب ساعات الليل، حيث لا أكون عالـمًا إن كنت بجوار السحاب أم بقاع المحيط، وكنت أرتعب من عدم الرؤية أكثر من رعبي من الماء البارد والمصير المحتوم.

أما الأمل الوحيد والضئيل الذي احتفظت به، هو أن كل هذا سينتهي وسأعود إلى بقعة الشمس، وفي الحقيقة لم يكن لديَّ غيره، ولذلك صرت أتمثله ولا أرى سواه، وبهذه الطريقة صار العذاب أخف، بل إني كنت أحيانًا أحس بدفء الشمس على ظهري.

وكعادة الأيام فقد تبدل الحال، فرأيت نفسي وسط جزر الكاريبي، الرمال بيضاء، والشمس حارة، والبحر فيروزي رائق، والبيوت الخشبية متناثرة وسط المياه، وحمامات الشمس في كل مكان، تستمتع بها الجميلات وهن مستلقيات بالبيكيني، وروائح زيوتهن الواقية تملأ الجو، والمشروبات تقدم، والجميع في مرح مقيم.

كان الجميع سعيدًا ما عدا أنا، حيث كنت أعلم أن الموجة قادمة، وأن كل هذا بالتأكيد سينتهي في دقائق، ستهب العاصفة، وستختفي الشمس، وسيبتلع المحيطُ النَّاسَ، ويقتلع البيوت الخشبية من أوتادها، فيتعلق الناس بأخشابها الطافية، ثم يجرفهم السحب إلى المياه العميقة، فيغرق الجميع ما عداي، فأبدأ رحلة المعاناة، متوهمًا شروق الشمس من جديد، الأمر الذي حدث بالفعل، وأخذ يحدث العديد من المرات بعد ذلك، حتى أتى عليَّ يوم وقد تبلد

شعوري، فصرت لا أفرق بين العاصفة والشمس، ولا بين صفو السماء والسحاب، ولا بين الحرارة والبرودة، ولا بين المحيط والرمال، ولا إن كانت المياه في فمي هي ماء الملح أم خمر الشاطئ، ولا إن كنت سعيدًا أو حزينًا، أستمتع بالدفء أو أرتجف من البرد، وإني لا أعرف حقا إن كنت أحسن حالًا من الناس أو لا، ولكنني على الأقل حُرمت –بشكل نهائي- خيبة الأمل التي تشقيهم في كل مرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٢

أطبق الفراغ عليَّ من كل جانب، وسد عليَّ منافذ الخروج من الشقة، فكنت إذا اتجهت إلى هذا الباب أكاد لا أستطيع السير من كثرة الفراغ المحيط، وإذا جلست على الكنبة أشاهد التليفزيون أحاط بي الفراغ وثقل، مما يؤدي بي إلى صعوبة التنفس، أما وأنا آخذ «دش» الصباح يتحد الفراغ مع البخار ويتكاثف، فأخرج مهرولًا مرتعبًا، مخافة انغلاق منافذ التنفس لديَّ، ووقوعي على الأرض.

كنت إذا حكيت لأحد عما أرى بالشقة، يسخر مني ويتهمني بالمبالغة أو بالخرف في بعض الأحيان، ذات مرة كنت أعتذر لصديق عن عدم وفائي بموعد الأمس، فقلت له إني لم أستطع الخروج من الشقة بسبب الفراغ، بدوت له مجنونًا تقريبًا، وذكرني بنكتة «الضباب السياسي» التي تندر بها الشعب عن الرئيس الراحل، وعن تبريره المتكرر كل سنة، لعدم بدء حرب استرداد الأرض، بسبب الضباب.

يزداد الأمر صعوبة كل عام، فبعد أن كنت في الماضي أتخلص من الفراغ بمخالطة الأصدقاء، واللهو حتى ساعات الليل المتأخر، لم يعد هذا الحل مجديًا.

كنت أخرج إلى أماكن تجمع الأصدقاء، وعندما أنتشي أبدأ في الغناء، أو إلقاء النكات والضحك، أو السخرية الناعمة من أحد الأصدقاء، أنتقي واحدًا كثير التجهم، فأسميه إله النكد عند القدماء، أو آخر يحب أن يعطي دائمًا انطباعًا عن نفسه بأنه يفهم في كل شيء، فأشيع أنه ذهب مرة إلى اليابان فحدثهم باليابانية فلم يفهموا شيئًا منه، فعرف أن لغتهم اليابانية ضعيفة، وافتتح معهدًا لتعليم اللغة اليابانية في عاصمتهم، ولم يرجع إلى مصر إلا بعد أن اطمأنَّ أنهم قد تعلموها كما يجب.

وكنت ألاحظ أنه عندما يبدأ الآخرون بالضحك ينقشع جزء من الفراغ، فأستمر في معاودة أسباب الضحك، واختلاق النكات، وهكذا تستمر السهرة بالضحكات إلى أن يتبدد بالكامل، العدو الذي نخاف منه جميعًا، الفراغ.

لي صديق بدأ يشكو من نفس الأعراض التي أُعاني منها، وبدا لي، أثناء شرحه، أن حالته ليست جدية بمثل حالتي، فهو يشكو قليلًا، وعلى فترات متقطعة، لكن الذي اتضح لي بعد ذلك، أنه غير قادر على الشكوى مثلما أنا قادر، لكنه –أيضًا-يعاني بشدة، ومما عزز هذا الاعتقاد، بل جعلني متيقنًا منه، أن جلستنا معًا لم تعد تحل مشكلتينا؛ لأن حالة كلينا متأخرة.

بمرور السنوات ازداد عدد المصابين بالمرض، وانضمت أعداد أخرى من الأصدقاء إلى قائمة المرضى، وأصبحت لقاءاتنا لا تحل مشكلة الفراغ في أغلب الأمر، إلا إذا عززنا الجلسات بالشراب، حيث يؤدي الأخير إلى ملء الفراغ بشيء آخر، كالانشغال، الوهم أو التوهم، وهي أشياء نعلم جميعًا أنها مؤقتة، ولا تحل المشكلة أو تشفي من المرض إلا مؤقتًا، وأن الأمر مرتهن بالمدة التي يبقى فيها التوهم في خيالاتنا، حالًّا محل الفراغ، وكان هذا أقصى ما يمكن عمله بالنسبة للأفراد المصابين، حلول مؤقتة متكررة، تمامًا كاستبدال المخدر بالألم.

وفي الآونة الأخيرة لم يعد حتى الشراب مجديًا، بالنسبة لي على الأقل، فأصبحت في أثنائه أشعر أيضًا بالفراغ، الأمر الذي أثقل خطواتي بشكل عام، فإذا أنا جالس في بيتي أكون غير قادرٍ على القيام أو الخروج، إلا بمشقة بالغة، ناتجة عن المعاناة من الثقل الشديد للفراغ، وإذا أنا في مجالات التوهم غير قادر على المغادرة، إذ إنني لم أتوهم شيئًا بعد، لم أتوهم أن الفراغ انتهى، أو أن شيئًا من الحياة تبدَّل، وبالتالي لم أحصل على المبتغى.

وأخيرًا استطعت أن أرى الفراغ في البيت مجسدًا أمامي، ظهر كشخص سمين جدًّا، غير مرعب كالشياطين، بل هو شخص هادئ خجول غير عدواني، وحديثه ممل إلى أقصى درجة، قال إنه لا يعرف من أين أتى ولا ماذا يفعل بنفسه، وإنه غريب ليس له أصدقاء، لأن كل الناس ينفرون منه، وأنا مضيت أستمع إليه، ثم تحدثنا عن معاناتي معه، فقال إني أحس به فقط بسبب أني لا أراه، أما وقد ظهر لي مجسدا، فلن يعود إحساسي به كما في السابق، حيث لن يعود بإمكانه التمدد والانتشار وإحداث الثقل على نفسي، سيكون له حيز كسائر البشر والموجودات، يمكن أن يضايقني نعم، ولكنه لن يستطيع أن يطبق عليَّ، ولقد بقيت أستمع إليه غير مصدق تبدل شعوري نحوه، من الضيق إلى الإشفاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٣

لم أعد أدري مَن منا هنا ومَن هناك، فقد ذابت الحقائق في ذلك المشهد الضبابي الذي جمعني بهما، عندما اجتمعنا معًا لأول مرة منذ عقود، واقفين في غرفة نومي، نتباحث فيما سوف نفعله بعد لم الشمل.

كان الغيم يملأ الجو، والسحاب الرمادي الثقيل ينبئ بالمطر الكثيف، ولذلك لم يستطع الشباكان الكبيران المفتوحان على حديقة الجار أن يدخلا أي ضوء، وسرعان ما بدأت الريح في العصف بأشجار الكافور المحيطة، والتي انداحت رائحتها في المكان كله، ثم هبط المطر.

لم أعد أذكر شيئًا منذ تباعدنا في تسعينيات القرن الماضى، وحرت أين كنت وأين كانا، وحانت مني نظرة في المرآة، فوجدت نفسي الوحيد الذي كبر، أما هما فعلى آخر صورة رأيتهما فيها معًا، عند ذلك اتضحت الحقائق لي، فأنا العائش وهما الميتان، وتملكني الرعب، خاصة وهما يدعواني إلى اللحاق بهما، قائلين أن هذا المكان لم يعد مناسبا لنا، كما أنه ليس حقيقيًّا على أي حال، فصممت على رفضي لنصيحتهما، وصارحتهما بأنه لم يحن دوري بعد، ولذلك فأنا لا أريد أن أذهب الآن.

وإكرامًا لي، فقد تركاني لشأني مرحبين بقراري، ولسبب لا أدريه كانا من يتعين عليه الانسحاب، فرأيت نفسي نائمًا على سريري بالقاهرة، بينما ينسحبان من جسدي، كطاقة نور هائلة لم أقوَ عليها، وخرجت الطاقة في آخر نقطة لها من أصابع كف يدي اليُسرى، وعند ذلك شعرت بتخفف ضخم، محسوس وواضح، إلا إنني كنت غارقًا في ظلام دامس، عند ذلك خامرني الشك ثانية، من منا هنا ومن هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٤

لقد كان كالفلاش باك على نحو ما، فهو وإن استحضر الماضي إلا إنه لم يفعل بشكل كامل، كان يقتطع من هنا وهناك، ويمزج بين مقتطعاته تلك بشيء من العشوائية، ثم لا يكتفي بكل ذلك، وإنما يضيف إليه أحداثًا لم تقع، وأشياء أخرى مستحيلة الحدوث.

كنا في شقة العائلة قبل وفاتهم تباعًا، وكنا نستعد لبيع الشقة، بحصر المنقولات وتوزيعها على مَن يرغب، وكانت خالتي ضمن الموجودين تقوم بالتوزيع. كيف يتأتى ذلك وأنا لم أقم أبدًا ببيع الشقة في حياتها، وكيف كان لي ذلك وأين عساها كانت لتقيم؟

ثم ما هذه المنقولات الغريبة التي لم أرها قبل ذلك قط؟ ليس هذا كرسينا الفوتيه الذي اعتدت الجلوس عليه، وأين الراديو الخشبي بضوئه الأخضر، الذي اعتدت أن أسمع منه المسلسلات والفوازير؟

ثم مَن هؤلاء الأفراد الذين يتوزعون في أرجاء الشقة؟ ربما ليس من بينهم شخص أعرفه سوى خالتي التي ماتت بعد المرض، مَن هذا الشخص الذي يقف في انتظار إخراجنا للمنقولات؟ إنه يستعجلنا طول الوقت، وهو لم يعد يُخفي امتعاضه مَن ترددنا في توزيع قطع الأثاث القليلة المتبقية، يبدو من مظهره أنه المشتري.

على أي حال فقد خرجنا من الشقة، خالتي وأنا، وليس بين أيدينا شيء من المنقولات، ربما أصابنا الملل، أو الزهد، وها نحن نقف على الناصية معًا لا نعرف إلى أين نذهب.

بدأت ألوم نفسي على قرار البيع، فأين أذهب بها بعد ذلك؟ وقد كنت أظن أنها ميتة، لكنني كنت مخطئًا فها هي معي، غير أني حمدت الله على كل حال أن لم يظهر الباقون، وإلا لكان اللوم أعظم، وإذ ذاك التفت إليها فوجدتها تبتعد، وخُيل إليَّ أني أرى رأسها بين زحام السوق حتى اختفت ولم يبق سوايَ، وعندئذٍ قلتُ لنفسي مطيبًا إلام اللوم إذنْ؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٥

صحوت وقد تأكد لديَّ أن هناك رائحة دخان تملأ البيت، ونظرت وأنا لا أزال في السرير إلى النافذة المغلقة، فزاد استشعاري للخطر، قفزت خارجًا من الحجرة إلى الحمام والمطبخ باحثًا عن مصدر الدخان فلم أجد، فخرجت إلى البلكونة وقد تأكد لديَّ أن الدخان آت من هناك، ربما من جهاز التكييف وعلى الرغم من أنه غير مشغل!

لما خرجت لم أجد شيئًا إلا بقية من رائحة السحابة السوداء ففهمت كل شيء، وتألمت من حدة الاستجابة وتعكر المزاج وضعف النوم. كان الظلام لا يزال باسطًا أجنحته السوداء الكبيرة على الكون، وحانت مني نظرة إلى السماء فرأيت القمر بدرًا، عند ذلك أخذ مزاجي في التبدل السريع فدخلت إلى الصالة وأخذت الموبايل وخرجت أصوره، ثم دخلت واستلقيت على الكنبة وفتحت التليفزيون أشاهد فيلمًا قديمًا، وقد أدركت أني الآن في لحظة اختلاء بنفسي، نادرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٦

أخبروني أن أذهب لأستلم عملي كمساعد لجزَّار حديقة الحيوانات، ولما لم يكن لديَّ أي عمل منذ فترة فقد قبلتُ، هذا على الرغم من علمي بأن الوظيفة لا تناسبني، فأنا لا أستطيع الإمساك بأرنب، فما بال الذبح؟

في الشهور الأولى صرت أتمرن فقط، أسن له السكاكين، أجهز منضدة الذبح، أنقل القطع المذبوحة لتقديمها للحيوانات، أغسل بخرطوم المياه آثار الدماء، كان الأساس عندي أن أتفادى الذبح بأي شكل، إلى أن جاء اليوم الموعود، وكنت قد جهزت كل شيء، وجاء الجزار بالأرنب الأول، وضعه على المنضدة، ثم التفت فجأة ورائي إلى شيء لم أره ومضى يهرول في الحديقة. كان لذلك معنى واحد مؤكد، أنه يترك لي المهمة اليوم، خاصة أنه عندما عبرني، أشار بطرف عينه إلى الأرنب الراقد في استسلام.

تقدمت إلى الأرنب وأمسكت بالسكين، فنظر إليها بعينه الجاحظة قليلًا، لم أجرؤ على رفع يدي، أو الإمساك برأسه لتثبيته، بل خجلت من الإتيان بأي حركة تشي بشروعي في العملية، ووضعت السكين بجانبه على المنضدة.

عند ذلك التفت إلى العصا الضخمة الملقاة على الأرض ووجدت أنها تمثل الحل الأنسب لي، أن أخبطه بقوة على رأسه فيموت، أو يُغمى عليه فأذبحه دون أن يحس. أمسكت بالعصا ورفعتها عاليًا، لكني لم أستطع أن أهوي بها، بل نزلت بها برفق شديد حتى لامست رأسه، ثم رفعتها ثانية وكررت المحاولة.

طول هذا الوقت كان الأرنب ينظر إليَّ بلا أدنى خوف، وكنت متأكدًا من أنه يفهم ما يحدث، ويعرف تمامًا أني لن أقوى على ذبحه، لكنه يعلم أيضًا أنه ليس أكثر من طعام للأُسُود، فإن لم أذبحه أنا سيذبحه غيري، ولهذا السبب ربما كان متقبلًا إرادة القدر، تلك التي لا تُقهر أبدًا، أما أنا؛ فقد شعرت أني الغريب الوحيد في الحديقة، وأنني أفضل أن أفقد وظيفتي تلك عن أن أستمر فيها يومًا واحدًا آخر، فتركت مكان الذبح وصرت أتجول متخففًا من إحساسي بالواجب.

وعندما حلَّ صباح اليوم التالي كانت الأُسُود قد جاعت، أما عند الظهيرة فقد بدأت تزأر على فترات متقطعة وتنام بعدها، ثم زاد معدل الزئير قبل المغرب وصار متصلًا. لم يكن هناك بدٌّ فذهبت إلى هناك وقد رجع إلى إحساسي بالمسؤولية الكئيبة، زاد منه أن الجزار اختفى منذ أمس، وأنه لا أحد في الحديقة غيري، لا حرَّاس، ولا زوار، فقط أنا والأرانب والأُسُود. عند ذلك اتخذت قراري بالإفراج عن الأُسُود والأرانب معًا وتركهم لشأنهم ففعلت،

وكانت وجهة نظري في ذلك هو أن أدع الطبيعة تأخذ مجراها، أهون على من أن أذبح الأرنب.أ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٧

يبدو أن لعنة جماعية أصابت عمال الجراج، فلسبب غير مفهوم لم يعاونّي أحد في البحث عن موضع سيارتي في الجراج الكبير، وقد كانوا من قبل يهبون لإحضارها إلى حيث أقف، بدلًا من أن أتكبَّد عناء ولوج المساحات الضيقة للوصول إلى السيارة.

هذه المرة لبثت أبحث عنها صفًّا وراء صف دون جدوى، وإذ ذاك بدأت أصيح فيهم أن أين سيارتي، إلى أن قام أحدهم وقال لي بلهجة اعتذارٍ باردةٍ لم أشعر بها في داخله، أن شخصًا من معارفهم احتاج إلى أن يذهب في مشوار عاجل، فلم يجدوا بأسًا من إعارته سيارتي، وما دمت قد خرجت مبكرًا من العمل فلا بأس من أن أنتظر قليلًا إلى أن يعود الشخص.

تركني العامل وذهب إلى حيث يأكلون، لم يقدم لي أحدٌ منهم كرسيًّا لأجلس، أو عزمني على الطعام ولو من باب المجاملة، فوقفت والغضب ينهش عقلي ما يزيد قليلًا عن ساعة كاملة، وعندما أتى الشخص المطلوب أخذت منه المفتاح ثم أخبرتهم جميعًا بما انتويته، سأذهب إلى قسم الشرطة القريب وأسبب لهم المتاعب.

وكان آخر ما رأيته نفسي وأنا أسير في الشارع ذاهبًا إلى القسم، تراودني الخيالات بأني سوف أتأخر حتى المساء، ما بين إجراءات عمل المحضر والرجوع للجراج، لا بد أني سأكون متعبًا للغاية، وجائعًا، وأشعر بالبرد. فكرت في الرجوع لكن شعوري بالعار منعني، فمشيت قدمًا، لكن بخطوات غير تلك التي بدأت بها، وبقلب ينعي الوقت المهدر من أجل الحصول على الحق، وكان أكثر ما غاظني أنني استيقظت، فلا عرفت إن كنت ذهبت أو لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤٨

أسير في شارع الترام أمام منزلنا بالإسكندرية، الوقت ليل وليس بالشارع غيرنا، هي وأنا. أفكر في مبادلتها الحديث بينما تسير بجانبي، ثم أتراجع وأفضل الإنصات إلى صوت خطوتها المنتظمة على الأرض، والنظر إلى كتفها الملاصق لكتفي، منخفضًا عنه قليلًا، القمر يسطع في قلب السماء ويستدير ويكبر، حتى يحتل الجزء الأكبر من المشهد.

وأنا وهي، حبيبة الأربعين، وقد اطمأننت إلى وجودها الدائم بقربي، وعودتها النهائية، إذ بنا نصل إلى محطة الترام، فأخبرها باسمًا بما فاتها من حياتي في العشرين، هنا جلست حبيبة الجامعة على كرسي المحطة الحجري، وهنا وقفت بجوارها منتظرين الترام، ثم جاء صديقنا «الغلس» فركب معنا، هنا غازلتني في الترام متجاهلة إياه فمنحتني ثقة مطلقة، وهنا، وهنا.

تبدل وجه حبيبتي تدريجيًّا أثناء الحديث حتى أصبحت حبيبة الجامعة، أما أنا فقد صرت صعلوكًا في العشرين، غير قادر على التحدث إليها بسهولة حيث القيود عادت، غير أن سعادتي لم تفتر على الإطلاق، بل تواصلت على نحو أكثر بهجة، فقد زاد معدل حركتي وأخذت الحياة تدريجيًّا تتبسط.

هنا قررت أن أمدد إجازتي وأبقى يومين آخريين في العشرين، حاولت أن أتصل بزميلتي في العمل بالقاهرة، إلا أن خط الموبايل كان مقطوعا لعدم تسديد الاشتراك، سألت ولم أجد أماكن كثيرة للدفع إلا في محطة ترام الشاطبي كما أخبرني الناس، لم أكن مندهشًا وأنا أشاهد نفسي داخل الترام حافيًا وليس على جسدي إلا المايوه، ولا أحد ينظر إليَّ.

هناك وقفت في انتظار دوري وحانت مني نظرة إلى الموبايل، فوجدت السطح الزجاجي مشروخًا، وما لبث أن سقط على الأرض وتبعثر، قلت لنفسي: لا بأس في هذا؛ لأني سأضغط ضغطًا هينًا على الأرقام وأتصل، لكن الأرقام بدورها أخذت في التحلل والتساقط على الأرض بمجرد لمسي لها، ثم بدأ ما تبقى من جسم الموبايل في الذوبان الفعلي والتحلل والوقوع، حتى تبدد الأمل نهائيًّا في الاعتذار عن العمل قبل التعرض للرفت، ولما لم تكن هناك نقود كافية للذهاب إلى القاهرة، فقد أصبح العيش في الإسكندرية محتمًا ثانيةً، عند ذلك غادرت الكشك بضمير مطمئن أني بذلت أقصى جهدي في الحفاظ على العمل، مقاومًا في نفس الوقت رغبتي الحارة في إعلان ابتهاجي أمام الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٤٩

رأيت نفسي وقد التحقت بالتجنيد ثانية، كنت في عمري الحالي كبيرًا عن كل الناس، وقد تسلمت ملابسي الميري مثلهم، إلا إنه لم يصدر لي أمر بارتداء الملابس، كان الصول يصدر أوامره إلى الصف الأمامي للمجندين، فيبدلون ملابسهم في حجرات جانبية ذات مرايا، ستائرها مقطوعة، وليس بكل منها إلا شماعة لتعليق الملابس، ثم يصدر أوامره إلى الصف الذي يليه، وهكذا.

ولما جاء دور الصف الذي أنا به، وجدته يشيح بوجهه عنا منشغلًا بأعمال أخرى، فحرت في الأمر، وفكرت ماذا أفعل كي أتجنب الإهانة والسخرية المتوقعين، وكنت على يقين بأني إذا وقفت في انتظار الأوامر، فسألام على تأخري وحدي دون الآخرين دون أن يسمح لي بالرد، لأني أعرف حظي في مثل هذه الأمور، أما إذا بدلت ملابسي، فسيلومني الصول على التصرف دون انتظار الأوامر، هكذا خبرت فترة معسكر التدريب الأول أيام الشباب، وعند ذلك اخترت الحل الثاني، مرجحًا تغاضيه لومي لكبر سني النسبي.

وها قد حدث ما توقعته، حيث نظر إلى الصول الشاب، ثم أشاح بوجهه عني كأنه لم يرني، إلا إنه بدا كأنه تذكر شيئًا، فعاد ببصره إليَّ، ثم اقترب وهو يتحدث مع الآخرين، وفجأة التفت إليَّ ثانية وأصدر لي أمرًا بصوت خفيض للغاية، صوت لا يمكن أن تفسر من خلاله الكلمات، وكل ما سمعته عبارة «الجانب الآخر من المعسكر»، وخفت أن أسأله عما قاله، خوفًا من أن أعطيه فرصة للومي، وأملت في حدسي لاكتشاف المطلوب عندما أصل، فذهبت إلى حيث أشار، لكني لم أنجح في معرفة المطلوب، ولم يبق لي إلا انتظار اللوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٠

من بيت لبيت رحت أمشي تائهًا، ومن حي لحي أتنقل، سائرًا على قدميَّ، لاهثًا فيما أراه، رأيت الجامع الأثري والأبواب التاريخية في مصر العتيقة، ومشيت وسط الكراكيب من خشب وأوراق، وصعدت التلال، ليس رغبة في الفسحة، بل بحثًا عن بيتي.

كنت أخرج من حي إلى حي، وأقف عند مفترق الطرق، فلا أعرف أين الطريق الصحيح، طريقي الذي يجب عليَّ أن أسلكه كي أصل إلى البيت.

ظللت في تلك الدائرة طويلًا، وكان الحي عندما تكتمل شوارعه بحثًا، وأكون قد جربتُ كل منافذ الخروج، وخرجت إلى الشارع الأخير، إذا به الشارع الأول، ذلك الذي سلكته في البداية.

بلغ مني التعب مبلغًا كبيرًا، إلا إني ولسبب مجهول لم أكن يائسًا، أو متذمرًا، كنت حائرًا فقط أين عساه يكون الطريق.

وفي لحظة ما سألت أحد الناس أين أنا، فعرفت أنني في القباري بالإسكندرية، كنت سعيدًا برغم المتاهة الكبرى، لأنني لم أتعب بما يوازي الرحلة الطويلة، وكان حذائي قد تمزق فوقفت أصلحه.

ثم جاءت لحظة انتصف فيها الوعي وتداخل العالمان، فتذكرت موعد العمل في الصباح، كما تذكرت أني في اليوم السابق لم أكن قد حسمت قراري بالإجازة، لكن إزاء الحذاء المقطوع اضطررت للاستسلام وأخذ اليوم إجازة، على الرغم من عدم حاجتي الفعلية لها.

وعندما زادت مساحة الوعي أمسكت بالموبايل ووجدت أن الوقت لا يزال مبكرًا على الذهاب للعمل، وسررت لأني كان بإمكاني القيام بكل هذه الفسحة، وفي نفس الوقت عدم التفريط في يوم من أيام الإجازة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥١

بعد أن أنفقت في شراء الشقة تحويشة العمر، إذ بي، وبدلًا من الإقامة فيها، أنكفئُ على تنظيف الممرات المحيطة بها حيث إنها كانت في الدور الأرضي.

أخذت أكنس الممر الجانبي الذي تطل عليه، والذي يفصل بينها والعمارة المقابلة، شرعت بعد ذلك في بناء أحواض للزرع، وطليتها بأجود أنواع الطلاء. رحت أيضًا أطلي جدران الشقة من الخارج، إلا أنني بعدما انتهيت، وجدت الممر قد اتسخ ثانية بسبب إلقاء الناس للمخلفات من نوافذ العمارة المقابلة.

أخذتُ أكنسه ثانية، وأرشه بالمياه، حتى صار خاطفًا للأنظار من فرط النظافة، فكرت عندئذ في أن أصعد للعمارة لأخبرهم بأني الساكن الجديد، وأني مَن قام بالتنظيف، وأن عليهم مراعاة النظافة وعدم إلقاء مخلفاتهم في الممر، ثم ترددت، وفكرت أنه من الأفضل البقاء بجانب الأحواض قليلًا حتى يعتادوا رؤيتي فيتجنبوا إلقاء المخلفات.

بمرور الوقت صار كل همي الممر والنباتات، إلى درجة أني كنت أبيت في أحواض الزرع فقط لأشعر الناس بأهمية الجمال، وضرورة عدم إلقاء المخلفات، ورحت أشتري الأسمدة والأدوات الخاصة بالعناية بالأشجار المزروعة، تلك التي صارت معمرة الآن.

إلى أن جاء يوم رجعت فيه من الخارج لأفاجأ بضوضاء في المكان، ولما سألت قالوا إنه الساكن الجديد، وعلمت أنه اقتحم شقتي وأقام فيها منذ الصباح وقت خروجي لشراء الأسمدة. هونت على نفسي بأنه بالتأكيد هناك سوء تفاهم، وأنه حالما يرى عقد شراء الشقة سيتراجع على الفور، أو أن الأمر أنه اقتحم الشقة الخطأ، فذهبت إليه، وما إن اقتربت من باب الشقة حتى خرج إليَّ مزمجرًا، فعلمت أن المتاعب قد بدأت. أنكر الرجل ملكيتي للشقة وهددني متوعدًا إيايَ بالبلطجية إذا فكرت مجرد تفكير في الاقتراب منها، وأنا لم أرَ فائدة تُرجى من الحديث معه، حيث أنه يعتمد مبدأ القوة لا الحق.

وعندما وقفت مع صاحب الكشك على ناصية الشارع وأخذنا نتباحث فيما يجب أن أفعله، نصحني الرجل بالذهاب للشرطة على الفور لأخذ حقي، إلا إنني أسفت لأن هذا غير ممكن، فقد نسيت أين وضعت العقد، أعتقد أني وضعته في الشقة يوم الشراء، وفي الغالب فإن الرجل وجده، وطبعًا قام بتمزيقه.

لم تعجبني نظرة الشفقة في عينَي صاحب الكشك، ولا اقتراحه بالإتيان ببلطجية آخرين لاسترداد الشقة، وكان عقلي شاردًا في أخطاء حياتي، تلك

التي لا تتغير، وتضيع بسببها الأشياء التي أشتريها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٢

لا أدري سبب بيعي لشقتي إن كانت بيعت، أو تخلصي منها لأي سبب آخر، وبكلمات أخرى أنا لا أعرف أين ذهبت الشقة، لكن الذي أعرفه وأدهشني عدم حزني من فقدانها، بل والأغرب شعوري بالتخفف.

أقمت لدى صديق لي، أعطاني مفتاح شقة قال إنه لم يعد يسكن فيها، وأضاف معتذرًا أنها ستكون متربة بالكامل، وستحتاج إلى أعلى درجات التنظيف حتى يمكن العيش فيها، وأنا لم أرَ بأسًا، فلديَّ وقت فراغ كبير سيكون مسليًا أن أملأه بالعمل، ويبدو أني أُحلت إلى المعاش مؤخرًا، بدليل أني لم أعد أذهب إلى العمل، كما أني أتذكر أن الأيام الفائتة حديثًا باتت هناءً مستمرًّا ونومًا كثيرًا بلا عملٍ ولا كدرٍ.

على كل حالٍ، فما إن وصلت إلى الشقة حتى كان استغرابي كبيرًا، فالباب مفتوح، والتراب كثيف في كل مكان، إلى الدرجة التي لم أستطع معها أن أميز أي شيء، فمن الأرضيات إلى قطع الأثاث إلى الأسقف قد اكتسى كل شيء بلون رمادي ثقيل. في الواقع كان المنظر مرعبًا وقابضًا في الوقت نفسه، حتى إنني لم أستطع أن أدخل إلا بضع خطوات فقط، ثم تسمرت واقفًا، حيث استدرت أنظر إلى الباب في رعب من أن ينغلق.

اندهشت من وجود شقة حبيبتي القديمة بجوار شقتي، عرفت الشقة من بابها الذي طالما دخلت منه، ودار في ذهني أنها ربما تعتقد –حين تراني-أني جئت خصيصًا من أجلها، لكني لم أعد مهتمًّا بما تعتقد، ولا بنظرة الدهشة التي ستعتريها حين تراني، ولا بتذكر أيام المرح والشراب، فلقد ولى كل هذا، والآن لم يعد يعنيني إلا البقاء بالشقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٣

رأيتني أصعد سلالم بيتي بدلًا من استخدام المصعد، كما وجدت الناس جميعًا يصعدون معي بعدما أخبرونا أن المصعد معطل، فأخذنا في اجتياز السلالم والأدوار، لكن بلا وصول، وكان من الغريب ازدياد عدد الأدوار بشكل مبالغ فيه، وبما أنني أعرف شكل باب شقتي، فقد كنت واثقًا أن دوري لم يحن بعد، لكن الوقت طال ونحن مستمرون في الصعود، وعند ذلك بدأت أنظر إلى أرقام الشقق لأنها الوسيلة الأكثر دقة، متتبعًا إياها حتى أصل إلى رقمي، وعندئذٍ لاحظت أن بعض الأرقام تكررت، والبعض الآخر مفقود، ثم إنها بشكل عام لم تكن مسلسلة كما اعتدت أن أراها قبل تركيب المصعد الجديد.

أخذتُ أصعد مع ذلك، وبدأ يزعجني قليلًا عدم قدرة البعض على الاستمرار في الصعود، فكان مَن يتعب منهم يجلس على كرسي واطئ من الكراسي المركونة في الزوايا، أو يجلس على صندوق قمامة إن لم يجد كرسيًّا، أما الذين تحملت مفاصلهم الانثناء فقد أخذوا يجلسون فوق السلالم، وبهذا فقد أخذ عدد الناس يقل كلما صعدنا دورًا، حتى إذا التفت ورائي بغتة لم أرَ غيرى.

وبمساندة من قوتي التي لم تنته فقد أخذت في الصعود، وقد ركبني العناد بأني حتمًا سأصل، رغم أن الأرقام قد فقدت تمامًا معناها، بعدما أصبحت عشوائية لا يربطها أي ترتيب، فصرت معتمدًا فقط على الإصرار على المضي قدمًا، لكن المدة قد طالت حتى إنني لم أعد أعرف كم دورًا صعدت، ولا كم يومًا مضى عليَّ وأنا أصعد، وكان طبيعيًّا أن يغلب عليَّ الشعور بالملل فالإرهاق فالخذلان، ثم كراهية الشقة نفسها، تلك التي تبتعد بهذه الطريقة، فأخذت في الصعود بلا هدف، سوى أنني لن أجد شيئًا آخر أفعله إذا توقفت، وقد وصل شعوري بالنفور إلى مداه، حتى إنني فجأة وجدتني أمام باب الشقة، لكن رغبتي فيها كانت قد تلاشت، فأخذت في الصعود متجاهلًا إياها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٤

وجدت نفسي سائرًا في الطريق إلى بيتي الريفي، وقد أوشكت على الوصول، غير أن الأسئلة الكارثية تعاقبت، فلماذا أنا سائر؟ وأين سيارتي؟ وأين مفتاح البيت؟ فإن لم أكن أحمله فكيف سأدخل؟ وكيف أصل إلى مسافة قريبة من البيت بغير أن ألاحظ أني لا أحمل المفتاح؟

فكرت في العودة إلى بيتي بالقاهرة إلى حين حل المشكلة، كانت العقبة أن مفتاح بيت القاهرة موجود في السيارة، فكيف سأدخل؟ وأين مفتاح السيارة على أقل تقدير؟

حاولت باستماتةٍ أن أتذكر أين كنت قبل بلوغي تلك النقطة من الأرض، هل تعطلت السيارة مثلًا فتركتها على الطريق الرئيس؟ لو كان الأمر كذلك لاستطعت فتحها وأخذ مفاتيح البيتين، هل جئت قاطعًا كل هذه المسافة مشيًا على الأقدام؟ لماذا؟ ثم أين المفاتيح على أي حال؟ حاولت قدر طاقتي أن أهتدي إلى أي شيء، إلا أن عقلي كان رافضًا تمامًا للعمل وللتذكر.

الغريب في الأمر أنه كان حريًّا بي أن أتوقف عن السير، لكني رأيت قدمي تسيران وتحملاني قسرًا إلى بيتي الريفي، دون أن يكون لذلك أي منطق، فقد كنت على يقين قلبي بأنني لن أستطيع أبدًا أن أدخل البيت، فلماذا أتجه نحوه إذنْ؟

وتاه مني كل شيء، فلا أنا ذاهب، ولا أنا عائد، وإذ ذاك بدأت البقية القليلة من الذاكرة تنمحي أيضًا، حتى الأسئلة التي تزاحمت على عقلي أخذت تتلاشى واحدًا بعد الآخر، وعند كل سؤالٍ يتلاشى جانب من الراحة يستقر، حتى لم أعد أشعر في النهاية بأي شيء غير الهدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٥

المدخل كان فخمًا، أرضيته من الرخام المصقول بعناية، فسيح للغاية، ومشمس من كل الجهات، وأنا أسير وبجانبي صديقتي عازفة البيانو، يقودنا المغني الأوبرالي الشهير، إلى حيث يرينا مزرعته التي انتوينا شراءها منه.

لكنه، ما إن فتح أحد الأبواب، حتى فوجئنا بأرض فقيرة للغاية، قذرة ومهدمة، مساحتها بالكاد نصف فدان، ترتع فيها الكلاب الضالة الجرباء، وتغطي أرضها أكوام القاذورات.

تركنا المغني لنتشاور قائلًا إنه لم يعد لديه وقت ليعتني بالمزرعة، ومشى واضعًا سيجاره الفاخر بين شفتيه، ونحن وقفنا نتساءل: أهذه كانت مزرعة أم خرابة؟ وانتوينا –بتأثير غضبنا-أن نذهب لنقول له إننا لا نريد المزرعة حتى لو مجانًا، وأن نرفض الركوب معه في سيارته في طريق العودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٦

رأيتني مرتين أمشي عريانًا تمامًا في الشارع، كالذي عقد عزمه على استكمال حياته بهذه الطريقة، فقد خرجت من بيتي حافيًا غير شاعر بحصى الطريق، حتى وصلت إلى الناصية فدخلت إلى الشارع الفرعي وكل إحساسي أن العالم قد تغير، وأنني قد كبرت بحيث أصبح مظهري لا يُعاب عليه، فلا حرج إذن إن بانت عورتي؛ لأني خرجت من سن التكليف والمسؤولية، ولم يعد أحد يطلب مني شيئًا ولا يحتاج إليَّ في شيء، وأن كل ما عليَّ في أيامي المتبقية هو أن أعتني بنفسي قدر الإمكان حتى لا أثقل على أحد.

أمشي عريانا، أتوقف عند بائع الخضراوات، أستأذن في حبة خيار أو طماطم فلا يبخل عليَّ بها، رغم أن لديَّ معاشي، لكن المسألة ليست النقود، بل إن الاحتياجات قلّت وتكاد تنعدم، فلا النساء صرن يستهويننني، ولا فاخر الطعام أرغبه، ولا معنى للملابس ما دمت لا أسترعي انتباه أحد.

في الشارع الفرعي جلس بوابان، مرتديين جلابيتين ناصعتي البياض، وما إن رأياني حتى فتحا فمهما في ذهول بالغ، وبانت في نظرتهما كل الرسائل الموجهة إليَّ، وقيم الاستنكار التى كانا يرسلاها.

تواريت فزعًا من منظري، مندهشًا من انتباه أحد، وقد رجع إلي إحساسي القديم بالعيب، وهالني عُريي حتى كدت أموت خجلًا، فوقفت بين سيارتين لأستر نفسي، ثم لم يكفني ذلك فجلست القرفصاء حتى لا يراني أحد، وكانت ورطتي هي أني لم أعد قادرًا على العودة إلى البيت بهذه الطريقة، رغم المسافة القصيرة، لأني لن أستطيع تحمل نظرات الناس، وأنه لم يعد لديَّ من حل سوى انتظار أحد العابرين ليقدم لي جلابية بيضاء أعود بها.

كنت أعلم صعوبة الموقف، فمن ذا الذي سيسير في الشارع حاملًا معه جلابية إضافية تحسبًا لوجود مجنون يستره؟ وعند هذا الحد صحوت.

كان التفسير دينيًّا عند بعض الأصدقاء، ممن رأوا في هذا الحلم بعدًا عن الخالق، كما أرجعه البعض إلى القلق المزمن الذي أعاني منه، فالعيش وحيدًا بعد موت الكثير من الأقارب يدفع باتجاه اليأس، وقال البعض الآخر بل كلنا هذا الرجل، أما أنا فقد كنت أحس بافتقادي مكاسب الحياة، وأني هكذا أسير في كهولتي بلا ساتر، تمامًا كما ولدت، أسير إلى موتي بحال كحال الميلاد، عريانًا، لا شيء.

أما على أرض الواقع فكانت لديَّ مشكلة مؤجلة في العمل، فقد انتقُص من قدري بسبب وشاية، وتأثرت سمعتي إلى الحد الذي جعلهم يتكلمون عن

راتبي كيف أنه كبير بالمقارنة بحجم إسهامي في العمل.

استجمعت قوتي القديمة وذهبت أصلح ما أفسده الكارهون، فقابلت مستشار الرئيس، ثم الرئيس نفسه، وعدت إلى عملي مرفوع الرأس وقد عادت إليَّ سمعتي القديمة كأحد المديرين شديدي الكفاءة، ولم أعد أحلم ذلك الحلم أبدًا، ولم أعد أشعر بمثل ما شعرت به من استغناء الحياة عني، عاد إلى كل شيء بل صرت أقوى، وصرت مبتسمًا كيف أخفت على نفسي أن معاناتي كانت شديدة إلى هذا الحد بسبب العمل، ومتخفية في الوقت نفسه، وإلا لكنت أسرعت بالتحرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٧

تتابعت على الأحلام بالأمس حتى ظننت أني لم أنم، فقد رأيت بالأمس أمي وخالتي، وأخي الأصغر، وأصدقاء الفندق القدامى، كل في حلم منفصل. رأيت أولًا أمي وخالتي وأنا معهم، في مكان غير واضح، فكأنه عيادة طبيب أو حضانة أطفال أو معهد لتعليم اللغات، ثم انقضى ذلك بلا معنى سوى بعض المشاوير في الشوارع، ليدخل عليَّ أخي غرفة نومي، فأصيح به فلا يصدر مني صوت، بل أكثر من ذلك لا أستطيع تحريك يدي اليسرى فأشير له، ثم هو لا يلتفت إليَّ، فأجد نفسي في مكان أشبه بكافيتريا، وأصدقاء الفندق القدامى يجلسون في الدور الثانى، فأصعد السلالم جريًا وقفزًا، ويتأهبون هم وقوفًا للسلام عليَّ، لكن تحرجني يدي اليُسرى الموضوعة في جيب البنطلون الجينز؛ لأني لا أستطيع إخراجها أبدًا كي أحتضنهم. فأتحسر على دبيب الشباب في سائر الجسم، لم يفدني بشيء.

أستيقظ في الصَّباح فأفكر في مغزى ثقل يدي اليُسرى الذي تكرر، ولا أجد له تفسيرًا إلا خوفي من تكرار تجربة خالتي التي أُصيبت بجلطة أضعفت يدها اليسرى، ولولا وجودي في الشقة لأنقذها في وقت مناسب لكان الأسوأ حدث، وأنا الآن وحدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٨

رأيت بيتي الريفي وقد تحول إلى قصر منيف، فعلى جدران السور الخارجي ارتفعت الزخارف الحديدية كما زاد طول السور، ثم بانت جدران البيت من خلفها وقد ازدانت بالشبابيك الأرابيسك العتيقة، مطلية بلون أخضر فاتح يبدو عليه القدم.

لم يبهجني كل ذلك فقد كنت مشغولًا بشيء آخر هو: أين ذهبت الأشجار التي زرعتها بالخارج إلى جانب السور الفاصل بيني والجار؟ كانت قد اختفت، وللحظة خلت الفاعل أحد الجيران المسببين للمتاعب، لكن بيت الجار أصلًا قد اختفى، واختفت معه كل البيوت والأسوار التي حددت مساحات الأراضي، بل صارت الرمال ناعمة ليس عليها من أثر لقدم.

سألت الغفير أين ذهبت الأشجار، ولم تكن لديه إجابة، فوقفت في نهر الطريق حائرًا فيما يجب أن يكون عليه شعوري الآن: أهو الغبطة باتساع البيت أم الحزن لفقد الأشجار؟

وإذ ذاك دخلت البيت ففاجأني المشهد السعيد، لم يكن البيت متسعًا كما بدا من الخارج، كان بالضبط كما تركته وكما أعرفه وكما بنيته بالضبط، وكنت شغوفًا بالخروج أيضًا للتأكد من وجود الأشجار، لكن لم يمهلني الوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥٩

أخيرًا سنحت لي الفرصة لأنتقم من زميلي الكاتب، فقد تجرأ الرجل منذ عدة سنوات، وادعى بأني سرقت منه فكرة لقصة قصيرة كتبها، كان الأمر أشبه بمهزلة وانهزام للقيمة الأدبية، وعلمت –بعد اتصالي بالآخرين-بأنه شبه مريض نفسي ودائم اختلاق المشاكل، فتجنبته كما أتجنب كرسيًّا موضوعًا في الطرقة في ظلام الليل إذا ما كنت ذاهبًا إلى الحمَّام والكهرباء مقطوعة.

ثم رأيته في بيت صديقتي الناشرة، كنا في العجمي، وهي قد دعت العديد من المهتمين بالحقل الأدبي، كالكتاب والناشرين والمترجمين، ومنهم كاتبة نشرت كتابًا ذا عنوان طويل متضمنا كلمة «العجمي». قالت لي صديقتي أن الكاتب الذي تكلمنا عنه قد كتب مقالًا يمدح فيه الكتاب ويقول إنه يؤرخ لتاريخ الضاحية الجميلة، بينما يتحدث الكتاب عن شيء آخر تمامًا يحدث داخل العجمي، لكن لا علاقة له بالتأريخ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يزر العجمي أبدًا، ولا يعرف عن هذا المجتمع شيئًا.

وجدتها فرصة العمر أن أسخر منه، هو المحترق بالرغبة في الشهرة، وأنا المنكفئ على ذاتي تؤرقني الإجادة كما لا يفعل أي شيء آخر، قلت لها إني سأكتب مقالًا عن الكتاب بعد أن أقرأه، وسأبين فيه ما أعتقد أنه مقصد الكاتبة، ولكني أرغب قبل هذا في أن أخرج إلى الشاطئ، تاركا السهرة الجميلة، لأرى كيف أصبح المكان منذ أن تركناه في أواخر الثمانينيات، حيث ملاعب الراكيت، والنساء الجميلات، والعطور الفواحة، والألوان الفاتنة للمايوهات، وزجاجات الشراب وهي مغروسة في الرمال الناعمة، يتحلق حولها الروَّاد من صفوة المجتمع، وأضفت لها بأن هذا ما سيعطيني الزخم العاطفي الذي أحتاجه في كل مرة أبدأ فيها الكتابة، والذي لا أستطيع أن أكتب من دونه.

تركت عزومة الغداء إذنْ، وفتحت باب الشاليه وخرجت، فإذا بنساء يتزاحمن على الشاطئ بالجلابيب، وأطفال يقف على أعينهم الذباب، بينما المجاري قد وصل طفحها إلى رمال الشاطئ فاختلطت بمياه البحر، والعمارات شيدت على أعلى مستوى ممكن من القبح والبذاءة، أما عربات الفول فهي تقف على الجانبين تطعم المصطافين الذين ارتدى بعضهم الملابس الداخلية كرداء للسباحة، فوقفت هناك والغم يملأ قلبي وعقلي، ولم تعد بي رغبة في الرجوع إلى العزومة، إذ كيف سأشرح لهم أن الأمر تعدَّى موضوع العنوان بمراحل، وأن الطوفان سحقنا جميعًا بينما كنا مشغولين بالكتاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦٠

بيتنا ذلك الذي دخلته مرارا حتى بعد هدمه وبناء الجديد، رأيته بالأمس مرة أخرى، وقد أخذت أعتني بالحديقة فجلبت العمَّال، الذي جعلوا يشذبون الأشجار فيجعلونها دائرية.

انصب اهتمامي بالأمس على الحديقة الأمامية، وسررت عندما أخذت أتفقد الأشجار بعد انتهاء العمل فأراها بهية المنظر، ثم حانت مني نظرة إلى مخزن البدروم الأمامي ذلك الذي لم يكن موجودًا من قبل، ففتحت بابه وأخذت أنظفه وحدي، مصممًا على إعادة تنظيمه ليكون استراحة جميلة، أخرجت أوراق الأشجار والكراكيب الأخرى بمقشة طويلة خوفًا من وجود كلب سمعت صوته بالداخل، ثم لم يتبق في المخزن إلا كيس ورقي كبير فتحته إلى أعلى وفي حالة جيدة، وغلب عليَّ الظن أن الكلب اختبأ داخله.

خشيت من نزولي إلى المخزن وخروج الكلب الجائع إليَّ، إلا إنني غالبت خوفي، فنزلت السلالم بخفة، وأمسكت الكيس من فتحته العليا كي أمنع الكلب من الخروج، لكني عندما وضعته في الحديقة خرجت منه قطة هزيلة تسير بصعوبة ويبدو على ساقيها الخلفيتين بعض التيبس، خرجت وحدها خارج الفيلا ثم وقفت بجوار أوراق الأشجار الجافة التي كومناها لتجمعها عربات الزبالة.

من نظرتها أدركت أن عليَّ فعل شيء، فأحضرت بطانية خفيفة وفرشتها تحتها ووضعت جزءًا منها فوق جسدها، ثم أحضرت بعض الطعام والماء فوضعته أمام فمها، إلا إني لم أر ذلك كافيًا، فعدت إليها بعد قليلٍ وأدخلتها إلى الفيلا ووضعتها في البلكونة الأمامية كي أجنبها الصقيع، ثم أحضرت علبة كبيرة من الكرتون المقوى فوضعتها والبطانية داخله وأضفت طعامًا آخر.

وكنت كلما نظفت جزءًا من الحديقة أعود فأتذكرها فأرجع إليها متمنيًا أن تؤتي جهودي ثمارها فتسترد القطة عافيتها وتمرح، وعندما انتهى كل ذلك، فتحت عيني فخيل إليَّ أن القطة بجواري وقد اتخذت لها موضعًا على المخدة، فلم أجفل، لكني نظرت إليها أتحقق، فإذا به غطاء الرأس التريكو الأحمر الذي غطيت به رأسي في المساء، وقد اتخذ شكلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦١

جلس معي صديقي المحامي في بهو الفندق الصغير، وأخذ يراجع معي بنود العقد المكتوب، والذي طرفاه أنا وإحدى جهات الاستثمار في البلاد، والذي يتوجب عليَّ توقيعه قبل الذهاب إلى الاجتماع، ودهشت لما وجدت العقد مكتوبًا بلغة لا أعرفها، وكنت حائرًا أفكر مَن الذي كتب العقد بتلك اللغة؟ ولماذا هي ليست العربية أو حتى الإنجليزية؟ وكيف لم أنتبه إلى أنه بلغة أخرى إلا صبيحة التوقيع؟ وقد راجعناه العديد من المرات من قبل؟

على أي حال، فقد انتهت المراجعة، على نحو غامض، وأنا بالكاد أستطيع قراءة رقم العقد في أعلى الصفحة الأولى إلى اليسار، ثم اختفى المحامي، وكان في يدي كتاب أصررت أن أرجعه إلى غرفتى قبل أن أذهب، أخذت أبحث عن غرفتي التي غادرتها منذ قليل، وفي يدي المفتاح، كان الرقم مكتوبا عليه: ١٠٦.

أخذت أسير متابعًا أرقام الغرف مكتوبة إلى الأبواب حتى وصلت إلى الرقم ١٠٥، ثم قفزت الأرقام فجأة إلى المئات، واستمرت فترة ثم رجعت إلى الرقم ١٧، ثم تسلسلت ثانية بعد ذلك، وأنا أتتبع كل هذه التسلسلات فلا توصلني إلى الرقم الوحيد الذي أريده وهو الرقم ١٠٦، إلى أن وجدت عامل النظافة أمامي فسألته أين الرقم الذي أبحث عنه، فقال:

- مفيش هنا ١٠٦.

أريته المفتاح في يدي تأكيدا لكلامي، إلا إنني فوجئت منه بأغرب رد يمكن أن أتوقعه:

- برضه مفيش هنا ١٠٦.

لم أفهم إن كان ردُّه تعنُّتًا أم ماذا، كل الذي كنت أدريه أنني كنت في غرفتي تلك منذ قليل، في نفس هذا الفندق، ثم نزلت إلى الاستقبال لتوقيع العقد، على أي حال لقد تذكرت أيضًا ما هو أهم، وهو أنني يجب أن أسرع للحاق بموعدي الذي سيعود عليَّ بالثراء الفاحش، وليذهب الفندق إلى الجحيم، فتركت المفتاح في الاستقبال متوعدًا، ثم وأنا خارج نظرت مبتسمًا إلى ذلك العقد الذي لا أفهم منه شيئًا، وحانت مني نظرة إلى الرقم المكتوب في أعلى الصفحة إلى اليسار، فإذا به ١٠٦.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦٢

بالإشارة إلى عدم رضائي عن حياتي في الفترة الحالية، سواء عن عملي، باعتباري أؤدي عملًا أراه ضئيل القيمة، أو عن حياتي خارج العمل، حيث أقضي أوقاتا كثيرة في اللهو بسبب الفراغ، أنفق فيها معظم هذا الراتب الذي أعتبر نفسي لا أستحقه، بالإشارة إلى كل هذا، فقد باتت أحلامي الأخيرة مبعثرة في معانيها، مشتتة في مشاهدها، بلا أي منطق درامي في الحلم نفسه، ولا أي منطق تفسيري حتى بعد الاستيقاظ.

أحلم بمشاهد عنف وشجار، ومشاحنات مع ناس أعرفهم، وتنتقل المشاهد من دوائر العائلة إلى دوائر المعارف فعلاقات العمل، فأقوم من النوم وقد بلغ ضيقي مداه.

بالأمس فقط رأيت نفسي في «الجيم» أمارس لعب الحديد، وقد اقترحت على مالك الصالة أن أساهم بالبنش القديم الذي أمتلكه مع تارات الحديد التي لعبت بها في الثلاثينيات من عمري فوافق، وإذ ذاك تركته يغادر الجيم مساء، ووقفت أنظف المكان وأنسقه ليكون في استقبال اللاعبين الهواة صباح الغد.

وعندما أفقت في الصباح وجدت نفسي سعيدًا لأول مرة، بعد أن رأيت نفسي أفعل فعلًا منتجًا، فالعضلات تستجيب للحديد فتقوى، ومن هنا تستقيم معادلة أن النجاح وتحقيق المرجو وليدَا المجهود، بعيدًا عن أمور الذكاء الاجتماعي، التي كثيرًا ما تطمر القيمة.

ورأيت في هذا الحلم ما جبلت عليه من صفات، فلطالما أحببت الزراعة لأنها تعتمد على القانون نفسه الذي أحبه، فالنبات لا يعرف مداهنة السياسيين، بحيث إن كل ما تحتاجه لإنجاح الزراعة هو أن تعلم الشروط ثم تعمل بجد ومثابرة، كما ذكرني الحلم أيضًا بنفوري من بعض المهن التي امتهنتها في السابق كالمبيعات وبعض فروع التسويق، تلك المهن التي تعتمد على المهارة في الادعاء.

وبالطبع فإن واقعي لم يتغير لمجرد طيف مر بي في ساعات النوم، لكن ذلك الطيف على الأقل أرجعني إلى ذاتي وألان ما بيني وبينها من جفاء طال أمده، بسبب خيبة الأمل في كثير من أمور الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦٣

ظلت الابنة الشابة لصاحب المدرسة تناكفني في عملي، فما أكاد أضع أصبعي على مفتاح «الكيبورد» حتى تضع يدها تزاحمني، مدعية أنها تريد أن تراقب عملي، لقد بدت في قمة العجرفة، وكنت أنا متيقنًا من جهلها التام بأمور الحسابات، ولذلك صبرت عليها عساها تمل، لكنها لم تفعل.

إذ ذاك حادثت صاحب المدرسة تليفونيًّا، قائلًا له إن مراقب الحسابات سيصل غدًا ولا بد أن يكون التقرير المالي سليمًا، وإلا فإنني لن أكون مسؤولا عن العاقبة.

كلم الرجل ابنته قليلًا، ثم وعدني بأن كل شيء سيكون على ما يرام، إلا أن ما حدث في الواقع كان عكس ذلك تمامًا، فالمضايقات استمرت ولم يتغير شيء، فكرت حينئذ في الحل الآخر وهو أن أتقدم باستقالتي فورًا منحيًا نفسي عن المسؤولية، متعجبًا من عدم اكتراث الرجل بمصلحته، فكلمته ثانية وأخبرته بأني تارك للعمل مهما حدث، وأنه في الغد سيواجه القانون وحده، ثم سلمت التليفون لابنته وغادرت المدرسة، لاعنًا التسيب والإهمال.

العجيب في الأمر، هو أنني بمجرد وصولي إلى البيت، وجدت نفسي أعمل على جهاز الكمبيوتر الخاص بي لإنهاء التقرير، ومن ثم إرساله بمجرد الانتهاء منه إلى صاحب المدرسة الكسول، وكنت متعجبًا أفكر ولا أجد إجابة لسؤالي: لماذا أعمل لإنهاء التقرير ما دمت لم أعد مسؤولا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦٤

تم تعييني رئيسا للوزراء في الفندق الذي كنت أعمل فيه في شبابي الأول، حيث قالوا لي إن هذا هو التكريم الذي أستحقه، بعدما بذلت الجهد الكبير في حياتي الوظيفية، وكفندقيٍّ قديم كنت أعرف تقريبًا كل شيء عن الفندق، فلم أكن أحتاج إلى جهد أكثر من خدش جدار ذاكرتي القديمة للبحث عن حلول المشكلات، المشكلة التي لم تكن موجودة أيام الشباب، هو أنني كلما كنت أفعل ذلك، كنت أرى طبقات في الجدار، وراء الطبقة التي خدشتها، فأعرف أن أبعادًا أخرى هناك، وبسبب هذا بدأت الأمور تتكشف، وبدأت أشعر أن كل ما كنت أعرفه في الماضي لا شيء تقريبًا، وهالني كمّ المعاونين المتخصصين الذين أحتاجهم لأداء الوظيفة على أكمل وجه، وغلب عليَّ الظن بأني لم أعد قادرًا على بذل كل هذا الجهد، فاعتذرت عن المهمة، وأوصيت رؤسائي بأن يختاروا شابًّا واحدًا –كالذي كنته- ليحل كل المشكلات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦٥

كنا جميعًا موجودين في فضاء الحديقة، وقد ارتقينا شرفة عملاقة شيدت فوق الحشائش، بدت أعلى من الفيلا نفسها، تكونت الشرفة من أعمدة خشبية معلقة في الهواء، وأرضية كلها من عروق الخشب الضخم، بالإضافة إلى الأسوار العرضية المشيدة بنفس الطريقة.

أما الوقت فكان قبل الغروب بقليل، وكان آخر من انضم إلينا الجليسة التي خصصناها لخالتي المسنة، جاءت فجلست بجانبي، وقد أتى كلٌّ بطعامه، أما هي فقد شاركتنا بزجاجة نبيذ مفتوحة مليئة إلى منتصفها، ورخيصة، واعتذرت وهي خجلى، بأن هذا هو كل ما تملك.

اندهشت قليلًا من وجودها، كيف عرفت بالاحتفال وهي حديثة العهد بنا؟ لقد استقدمتها للعمل فقط منذ عشر سنوات، فكيف عرفت أفراد العائلة الآخرين وهي لم ترهم؟ وكيف عرفت مكان الفيلا ذلك الذي لا يعرفه غيرنا؟

على أي حال لقد بدت المأدبة كاجتماع عائلي حميم وموسع، وكنت أنظر إلى غيوم الإسكندرية، فأتذكر الصور التي كنت ألتقطها أيام الجامعة للغروب، ثم معمل التحميض الذي أقمته على السطوح، وقد قررت زيارته خلسةً بعد أن ننتهي من الطعام.

وإذ حانت مني نظرة إلى وجوه العائلة، فرأيتها مغطاة بهالات بيضاء مستديرة كالبدر، فلم أعرف أحدًا، وصرت أتفحص بعينيَّ الملابس علني أستدل على الشخصيات، ثم أفقت.

في النهار صرت أحكي لأصدقائي، محاولًا تفسير سر الشرفة المرتفعة، والوجوه المغطاة بالهالات، والجليسة التي انضمت إلينا، ولم نجد إجابة.

وفي الليل التالي رأيت كل شيء، ولكن بإجاباته، فنحن لم نكن في الفيلا، بل في الفضاء، وأفراد العائلة لم يكونوا جالسين، بل كانوا أطيافًا نورانية، ومما يعزز هذا، أن وجهينا، أنا والجليسة، وجهينا فقط هما اللذان كانا بلا هالات، أما الفيلا فكانت في مستوى منخفض عن الشرفة، لأنها لم تكن على الأرض، بل أنا الذي شددتها معي بخيوط من حرير أبيض، وتركتها معلقة كمركبة فضاء، إلى حين عودتي من الزيارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦٦

بدأ حفل تكريمي وأنا غير مكترث به، فقد كان كل همي أن أذهب إلى الحمَّام، سألت في الساحة الكبرى التي تتوسط المباني الرومانية عن مكانه، فأخبرني أحدهم بكذا وكذا. اتبعت الخطوات، ودخلت إلى منطقة الحمامات المجمعة، كان القسم الحريمي إلى اليمين والرجالي إلى اليسار، قالوا لي إن المباول في منطقة ثالثة فذهبت أبحث عنها، وكان كل شخص يسلمني إلى من بعده دون جدوى، أصعد سلالم وأنزل أخرى ولا فائدة، ثم جاءني البعض جريًا، ليقول لي إن الفنانة التشكيلية الكبيرة تسأل عني لتجري معي حوارًا تليفزيونيًّا، ولترى رأيي في إمكانية استحداث نوع من الكتابة الأدبية عن اللوحات، وقفت أمامها منهكًا تمامًا وقد فقدت كل تركيز، وأخذت هي تتكلم عن المثل العليا والقيم الجمالية، لم أجد بدًّا من قطع حديثها بفجاجة، واستئذانها أن أدخل الحمَّام.

- ولكنك لم تجده في المرة السابقة.

- معلش، سأحاول مرة أخرى.

تركتها وذهبت أحاول، كان الجميع مشغولين برؤية اللوحات، وقد اكتظت السيارات خارج المعرض المفتوح المقام في الطريق الصحراوي، فأخذت طريقي ماشيًا إلى حيث الأشجار البعيدة، ثم أخذت أهرول وقد اختفى بشكل نهائي اهتمامي بحفل التكريم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦٧

سافرنا لنستلم البيت الريفي الكبير في إحدى قرى مدينة الفيوم، أتذكر وجوه سيدات العائلة بنوع من الإبهام وهن ينظفن المنزل، كان العدد كبيرًا، حتى إني أظن أن جدتي كانت هناك، وقد استجلبت واحدة من خالاتي بعض الفتيات الريفيات من بلدة مجاورة ليساعدن في مهمة التنظيف، كانت حفلة كبرى تلك التي أقمناها فور انتهائنا من العمل، أما بعد الغداء فكنت أسعد الناس، إلى الحد الذي أصررت فيه على توصيل بعض المعارف ممن احتفلوا معنا إلى موقف الميكروباص الرئيس.

لكني بعد أن وصلنا إلى الموقف وودعتهم احترت كيف أرجع، فما اسم القرية التي سكنَّاها، لم أدرِ ماذا أفعل سوى أن أركب ميكروباص من نفس الموقف، على أساس أنها قرية صغيرة، وحتمًا سنمر على البيت من هنا أو من هناك، لم يكن معي إلا عشرة جنيهات، وإذ ذاك بدأ يخطر لي خاطر خبيث، فماذا لو انتهى الطريق ولم أرَ البيت؟ ثم خطر لي خاطر آخر بأن جنيهاتي العشرة قد لا تكفي لركوب مواصلة أخرى بعد دفع الأجرة الحالية.

فكرت أن أتصل بعائلتي بالموبايل، ولكني خفت أن يعرف كل مَن في الميكروباص أنني لا أعرف أين أنا ولا إلى أين أنا ذاهب، أولًا سأصير أضحوكة، ثم قد يترصدني أحدهم، فأقع فريسة نصاب، ثم فكرت أن أنزل من الميكروباص في التو، فأتكلم بحريتي على الموبايل، ولكنى خفت مجددًا من ألَّا تكفي النقود، فبماذا تفيدني المعرفة بلا نقود؟

كان هناك بالتأكيد حلول أخرى كثيرة لحل الموقف، أبسطها أن أنزل من الميكروباص فأكلم أهلي، ثم أستقل تاكسيًّا حتى البيت، على أن يكونوا في انتظاري ليدفعوا لي، ولكن هذا الحل لم يأخذ حيزًا من تفكيري لسبب لا أدريه، فظللت شاعرًا بالمأزق كأن لا حل هناك، وكان هناك تيار لا شعوري يعبث بداخلي، عرفته فيما بعد، وهو أنني لا أريد –في حقيقة الأمر-أن أرجع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦٨

جاء رجال الرئيس إلى مصنعنا بدعوة مني لمساعدتنا في زيادة الإنتاج، فرحبت بهم، لكن لامني بعض العاملين على هذا القرار بقولهم إن هؤلاء الرجال يعبدون النظام، وإنهم لن يحققوا أبدًا النتيجة المرجوة، بل إن الأمر أسوأ من ذلك حيث سيكونون السبب في هبوط مستوى الإنتاج.

قلت للعاملين إن إحكام الرقابة على دورة العمل هو أحد أوجه النظام، وفي نفس الوقت فإنه ما يحقق السرعة، فكيف يستقيم ما يقولون؟ تركوني وذهبوا.

إلا أنه بعد فترة لاحظت تباطؤ حركة البيع وتراجع الإيرادات، فذهبت أتفقد الأمر، بدا الموضوع ملغزًا، حيث إن كل شيء على ما يرام، فالأجهزة تعمل، والإنتاج ينتقل من إدارة إلى أخرى ربما أسرع قليلًا مما كان، والتغليف يتم بمنتهى الحسم، طفت أرجاء المصنع مرتين ألاحظ إلى أن وجدت ضالتي، فالموظف الذي يحرر الأوراق النهائية لخروج البضاعة من المصنع يتكاسل، فهو يترك الأوراق تتجمع إلى أن يجيء اليوم التالي فيحررها مرة واحدة كلها في الصباح ثم يختفي، بدلًا من التواجد طول اليوم لتوقيع الأوراق.

ولما جئت به للسؤال وسط التهكم المكتوم من العمال، قال إنه يعمل طول اليوم في مسألة التوقيع هذه، لكن ليس في مصنعي وحده، فهو يتواجد في عديد من المصانع الأخرى للتوقيع، مصانع متحمسة مثل مصنعنا، وبالتالي فلا وقت لديه ليعطيه لنا أكثر من خمس دقائق في اليوم.

رجعت إلى مكتبي والجميع يراقبني، وأنا جلست أفكر كيف أن الإسراع في الإنتاج لم يعد له أي أهمية، ثم زادني كمدًا شعوري أنه ليس من الحكمة إعلان سحب تأييدي للرئيس، وأنني غير مستعد حتى لإعلان تراجع حماسي له، ولأسباب ليس من بينها الخوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦٩

كانت مجرد كف يد تلك التي قطعتها من جثة، وبغرض نبيل، ألا وهو إجراء الأبحاث العلمية لاستكشاف الأمراض، حيث وضعت الكف في كيس بلاستيكي أبيض، ومضيت به مطمئن البال نحو الشاطئ الوسيع، وأما الأصدقاء فقد كانوا ينتظرونني هناك، وقد استعدوا للمشاركة في الأبحاث.

وما إن ولجت الشاطئ، حتى أضيئت فجأة كل الأنوار، وسمعنا صوتًا يملأ الآفاق يقول بأنه قد صدر قانون بمنع الأبحاث، وخاصة تلك التي تقام على الأيدي في الشواطئ.

وما كاد الصوت ينتهي حتى جاء صوت آخر بقانون آخر، وهو تركيب كاميرات مراقبة في كل مكان في المدينة، على كل سطح منزل، وعلى كل ناصية، خاصة على البيوت التي تطل على الشواطئ.

ونظرت حولي فإذا بالمكان كله يعج بالكاميرات، وأسقط في يدي، فقد كنت مستعدًّا فور صدور القانون الأول أن أتخلص من اليد في أقرب صندوق قمامة، ولكني الآن لا أستطيع، لأنه فور صدور الرائحة سيتمكنون من الوصول لمن وضع الكيس، ولن يختلف الأمر كثيرًا إذا أخذتها إلى البيت، فعندما يكتشفونها بين القمامة سيتمكنون من معرفة صاحبها، وسيتأكد الدليل بوجود الكيس.

كنت أفكر في بصيص من الأمل، يتمثل في وضع الكيس في السيارة والسفر بها، وتضليل العدالة برميها في مكان بعيد ليس به كاميرات، أو انتظار عاصفة ما تمنع الرؤية.

لكنني، وبينما أنا واقف أفكر، تحشرج صوت الميكروفون للمرة الثالثة، وخرج منه صوت أقوى هذه المرة بقانون جديد، وهو منع حمل الأكياس، وسرعان ما انتشر رجال الأمن ملثمين مدججين بالأسلحة، وأخذوا يجوبون المكان وأنا واقف أحمل الكيس، كان كل جندي منهم يجوب المكان، وكنت أراه يقترب ثم يبتعد دون أن يلاحظني، ويتوغل في الماء فيختفي، فيعاودني الأمل، لكنَّ مزيدًا من الجنود كانوا يأتون، حتى سدت سياراتهم الأفق، كما بدأ الناس يختفون، حتى لم يعد بالشاطئ غيري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٧٠

لا أدري لماذا كل هذا الإصرار على العداوة؟ فالرجل مترصد لي في كل شارع، يجري ورائي في جوف الليل متعقبًا أثري، بغير أن يبدو عليه تعب أو ملل، بل إني أسمع ضربات حذائه الثقيل ورائي على الأسفلت، وأحيانًا أسمع صوته مَن بعيد وهو يسأل المارة إن كان أحد رآني.

وإني أتذكر كيف بدأت الحكاية، لكني لا أتذكر سببها، لقد كنت في بار الفندق بالدور الأخير عندما هبت مشاجرة، وعلى الرغم من أني لم أكن طرفًا أصيلًا فيها إلا إني تصديت للرجل الغبي ضخم الجثة، وقلت له إني مَن سيحطمه إذا قام من مكانه، وهو قام، فبان جسده عملاقًا بشكل غير مسبوق، إلى الحد الذي دفعني للوم نفسي على تسرعي في إظهار التحدي، وفكرت أي قول لطيف يمكن أن أقوله يجنبني المعركة، ولكن الناس كانوا قد تجمعوا، فشعرت بالعار أن أتراجع، وقلت في نفسي إنها إن كانت المعركة الأخيرة فلأخضها بكل شجاعة.

وعندما اقترب الرجل ضربته على رأسه، ثم بين فخذيه، ضربًا سريعًا خاطفًا ومتواصلًا، فتكور العملاق في ركن الغرفة، ثم ما لبث أن قام، ولكنني عاجلته قبل أن يستعيد توازنه، وكنت أفكر بأني لو تركت هذا الرجل يستعيد أنفاسه فهي نهايتي بغير جدال، فواصلت ضربه بلا هوادة، وحرصت على أن تكون ضرباتي مؤثرة ما أمكن، وأذهلني نجاحي في السيطرة عليه للحظات.

لكن الدائرة دارت بعد قليل، فقد استطاع الرجل بعد جهد وضع يده في بنطلونه وأخرج مسدسًا، وعندئذٍ صرخ الناس، وأنا حاولت قدر طاقتي الباقية منعه من استخدامه، إلا أنه بعد فترة استطاع تحرير يده، وفي تلك اللحظة بالذات لم يكن الفرار ليعتبر عيبًا، ثم لقد هتف بي الناس أن أفر، ففعلت.

أخذت أقفز نازلًا سلالم الفندق ودبيب خطواته ورائي، وكنت حريصًا على ألا أكون في مرمى نيرانه، وهكذا فعلت طوال التسعة أدوار حتى وصلت للشارع، الذي كان خاليًا في ذلك الوقت من الليل، ولم أكتفِ بذلك، بل قفزت إلى الشوارع الجانبية المظلمة، بعيدًا عن الشارع الرئيس حيث الكاميرات وأعمدة الإضاءة، وكنت كلما وقفت مستعيدًا أنفاسي أسمع صوت حذائه الثقيل ورائي، ربما بشارع أو شارعين، وكنت أصغي جيدًا لأحدد أي اتجاه أفر فيه، مرتعبًا من فكرة قتلي بلا سبب مفهوم، ومستغربًا في الواقع من قدر الغل والكراهية اللتين يكنهما لي، حقًّا لقد تشاجرنا، ولكن هل فعلت ما يستوجب القتل؟

أخذت أنظر في ساعتي بينما أجري، منتظرًا مطلع الفجر ليكثر الناس، لكن الفجر لم يأتِ، والساعة توقفت وأيضًا ساعة الميدان، فعرفت أن سلطاته تتسع باضطراد إلى الحد الذي مكنه من إيقاف الساعات، ووقر في قلبي أن الوقوع في يده قدر لا مفر منه، وأن المسألة ما هي إلا مسألة وقت، وتكشفت لي فكرة في رأسي، بأن كل هذا الجري ورائي، والرغبة الأكيدة في قتلي، ربما لا ينبعان من كراهية شخصية على الإطلاق، وإنما هو مجرد عمل ممنهج ضد أي شخص يجرؤ على الشجار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧١

بدأ جهاز التكييف يحترق في شقة خالتي فجرينا معًا لإطفائه، حيث أمسك كل منا بقطعة قماش ثقيلة وأخذ يكتم بها النار من ناحية، التي كانت تنطفئ فتعاود الاشتعال طول الوقت، حتى أعيانا الإرهاق.

تذكرت فجأة جهاز إرجاع الزمن، كان موضوعًا على الكنبة بجوار التليفزيون، انتبهت إلى أننا لم نستعمله قبل ذلك قط، فهل ادخرناه للنوائب؟ أمسكت به وخالتي تشاهدني، واتفقنا على إرجاع الزمن لمدة خمس دقائق سابقة، لنرى فيها كيف بدأ الحريق، كان الجو لهيبًا بالخارج، ونحن جالسين نشاهد التليفزيون تاركين باب الغرفة مفتوحًا، فظل التكييف يعمل فترة طويلة بلا انقطاع.

عرفنا إذنْ أنه كان يجب إغلاق الباب ففعلنا، ثم لبثنا خمس دقائق إلا أن الحريق اندلع على الرغم من ذلك، أرجعنا الزمن ثانيًا وأقفلنا باب الغرفة ووقفنا في الشرفة بجوار جهاز التكييف، وعندما مضت الخمس دقائق اندلع الحريق أيضًا، لكنه ما كاد يبدأ حتى أوقفناه هذه المرة، ثم لاحت مني نظرة إلى قطعة القماش التي أمسك بها فوجدتها محترقة من أثر امتداد النار لها أثناء الإطفاء، وقبل أن أعي ماذا أفعل انتقلت النار إلى جهاز التكييف، جريت إلى جهاز إرجاع الزمن فأمسكت بها وأرجعت الخمس دقائق مرة أخرى وأنا أفكر ماذا سأفعل لمقاومة الحريق في المرة القادمة، لم يكن هناك بد من حل جديد، فصلت سكينة الكهرباء عن الشقة، وأحضرت جردلين وملأتهما بالماء ووقفنا في الشرفة.

كانت الخطة واضحة، سنظل نصب الماء على جهاز التكييف حتى نطفئ النار، فعلنا هذا، وكانت النار تندلع في كل مرة على الرغم من كل ما نفعل، في ملابسنا أو في خشب النوافذ، في أي شىء، لكنها تنتقل في النهاية إلى جهاز التكييف، وبدا أنه لا حل هناك، وأننا لن نستطيع أبدًا تغيير مصير جهاز التكييف، فقبعنا في مجلسنا ولم نعد نفكر إلا في القادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧٢

شاهدتهما تسيران في أحد شوارع وسط البلد، كانتا تسيران بغنج واضح، ثم نظرت إلى إحديهما وزادت من جرعة الإغراء.

لم تكونا من النوع الذي أفضله، لم تكن بأيهما مسحة من جمال، ليست المشكلة هنا، بل كانت أنه لم يبدُ على أيهما الذكاء، ابتسامات مبالغ فيها وسلوك رخيص، مكياج فاقع على الخدود، وأحمر شفاه غير مرسوم الحدود.

قد تجذب المرأة الرجال بجمالها، وكثير منهم يستجيب، ولكني من نوع يجذبه الذكاء أكثر، ثم إن سببًا إضافيًّا هناك للهرب، فإن واحدة منهما على الأقل زميلة من زميلات العمل، وهي كلما تراني في المكتب تتودد إليَّ بطريقة بها بعض المبالغة، الأمر الذي لا يريحني، فأحرص على إبقاء المسافة على ما هي عليه، وربما تكون الأخرى أيضًا زميلة لا أعرفها، فمكان العمل به العديد من الموظفين.

لم تستسلم المرأتان، بل عبرتا الشارع إلى الرصيف الذي أسير عليه وبدأت المساومة، قالت لي التي أعرفها إنني مدعو لقضاء أمسية جميلة في بيت إحداهن بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع، قلت لها إنني لا أرغب في إقامة علاقة خاصة، فردت عليَّ بأني لست مضطرًّا لذلك، بل إنها ستسعد بوجودي فحسب، كانت عيناها تلمعان وأنا أبتسم في داخلي، لأني تخيلت نفسي كيف أقضي الأمسية مشاهدًا غير مشارك، مستمتعًا بالفرجة.

وجدت البيت عبارة عن شقة في دور أرضي بمستوى الشارع، في بيت مبني من الطين، واقع في حارة من الحارات الضيقة، بحي من الأحياء القديمة، تضاعف فضولي، لكني كنت حريصًا على إبقاء المرتَّب في جيب بنطلوني الضيق مخافة أن أتعرض لعملية نصب، وعندما انفتح الباب بدا المكان أشبه بحمام شعبي له رائحة نتنة، كانت النساء أيضًا لهن الرائحة نفسها، رائحة مقززة، غريبة، لم أشم مثلها من قبل، وقد أخذت النساء في توزيع زجاجات البيرة للتسرية عن الحاضرين.

أما الضوء في تلك الشقة فقد كان معتمًا قليلًا، حيث شبَّاك واحد مربع صغير في أعلى نقطة في الحائط قرب السقف، لا ينفتح ولا ينغلق، بل هو موارب تسد فتحته خيوط عنكبوت، ولما كنا في المساء فقد كانت الإضاءة الوحيدة عبارة عن مصباحين قديمين من مصابيح الجاز، كما رأيت هناك ماء منسكبًا على الأرض له نفس الرائحة التي شممتها عند الدخول، والتي أشمها عند اقتراب أي امرأة عندما تقدم لي البيرة.

انقضت الليلة في صخب وشراب وغناء، حتى غلبنا النوم قرب الفجر، فنمت مكان مجلسي، وصحوت بعد ساعتين تقريبًا عندما نزل خط باهت من أشعة الشمس على وجهي، وقد انقضى الفضول وحل محله الغثيان والخجل، فأصبحت تواقًا إلى المغادرة.

كان الجميع يقومون من النوم، والنسوة يلملمن فراشهن من حولي ويغادرن حتى لم يبقَ منهن إلا القليل، وعندئذٍ ظهر البلطجي يُطالب بالإتاوة، فصحتُ فيه بقوة، مستشهدًا بالزميلتين أني لم أفعل شيئًا، ووجدته يمد يده إلى جيب بنطلوني الضيق يريد إخراج المرتب وأنا أمنعه بعنف ممزوج باحتقار، فأخبرني بأن هذا المبلغ أصبح من حقه ما دمت قد قضيت الليلة عنده، ونظرت إلى المرأتين فوجدتهما تنسحبان متصنعتين البراءةَ والخوفَ، كما اختفى باقي الندماء، ولم يبقَ بتلك الشقة إلا أنا والبلطجي، وقد انفتح باب الشقة جالبًا إلى الداخل بعض التهوية، مما أعطاني الأمل في أن الأمر لن ينتهيَ على النحو الذي يريده البلطجي، وإن كان الأمر سيستلزم كثيرًا من العناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧٣

أصبحت فتاة إيرانية شابة رائعة الجمال، وقد همتُ حبًّا بشاب مصري وأغرم بي، ولم نتبادل طول الوقت سوى النظرات، لكنها كانت نظرات مفعمة، فأخذنا قرارًا بكل شيء، ثم رجعت إلى خالتي أحكي لها.

قالت:

- وما هو شعورك وأنت بنت لا ولد؟ هل هو نفس الإحساس؟

كانت خالتي هذه كاتمة أسراري، والوحيدة التي كنت أبوح لها بتفاصيل قصة حبي في الجامعة، وحتى بعد ذلك، فإني كنت أسافر إلى الإسكندرية خصيصًا لرؤيتها، ولأحكي لها عن قصة حبي الجديدة في العمل، ورأيها في البنت التي عرفتها.

ابتسمت وأومأت برأسي بأنه كان إحساسًا رائعًا، ثم إنه قد جد جديد على شعوري بالحب هذه المرة، هو أنني كنت قادرًا على فهم مشاعر خالتي تجاهي بشكل أكبر، وكنت قادرًا كذلك على التعبير عن مشاعري لها بشكل أعمق، حتى دون الاحتياج لعدد كبير من الكلمات، ثم إن الإحساس بالحب كان مضاعفًا غريبًا، وليس حتى كإحساسي الآن عندما عدت من الرحلة وتركت ما كنته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧٤

وقفت أنتظر قدوم أفراد العائلة إلى الحفل الكبير الذي أقمته في شقتي الجديدة، بدت الشقة قصرًا بالنسبة إلى الشقق التي سكنتها من قبل، فكل أرض الشقة من الرخام الفاخر، أما حجراتها فلا تعد ولا تحصى، حتى إن بعض الغرف لم أدخلها لعدم الاحتياج، كان هناك مطبخ أمريكي قرب منطقة الاستقبال الكبيرة في مدخل الشقة، الغرض منه تقديم المشروبات للضيوف أثناء انتظارهم لمقابلة صاحب البيت، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك العديد من غرف النوم وقد شيدت حوائطها أيضًا من الرخام، بالإضافة إلى صالات استقبال أخرى بالداخل، وصالات استراحة، وجاكوزي بكل حمَّام، ثم هناك النادي الصحي الرئيس، ومكتبة كبيرة، غير الشرفات التي أقيمت بها النوافير وحمامات السباحة.

دق جرس الباب ففتحت، كانت سيدة من أقاربنا، والتي لدهشتي لم تعرني التفاتًا، بل دخلت ملهوفة إلى المطبخ، فتعجبت كيف عرفت مكانه دون أن تراه من قبل؟

وبعد أن توافد الجميع واحدًا بعد الآخر دون أن يسلموا عليَّ حضرت أمى، كانت آخر من دخل، والوحيدة التي تلقفتني بالأحضان، فملت على كتفها أشكو إليها جحود الناس، وإذا بها تعلم كل شيء، وقفنا بالمدخل نتكلم، وقالت إنها ليست في حاجة إلى رؤية الشقة، وأنا قلت لها إنني أعرف، فقالت لي: - الوضع ده انت ممكن تغيره، وانت عارف.

وقبل أن تغادر لتلحق بميعادها طلبت منها أن أذهب معها وأترك لهم الشقة، ولكنها قالت: - ليس قبل أن تعمر المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧٥

أحاول أن أرجع بلا جدوى، فمنذ أن اشتريت الشوك والسكاكين وأنا أبحث عن طريق الخروج من الحي، وقد جربت كل شارع، إلا أن أيًّا منها لم يؤدِّ إلى مخرج، فهذا يضيق باستمرار، حتى يصل إلى حد يستحيل معه مرور سيارة، وذلك مسدود، والثالث ملتوٍ وقد افترش فيه آلاف الباعة الأرض الضيقة، ووضعوا أحجارًا كبيرة على الجانبين ليعرضوا عليها البضاعة، أخذت أسأل الناس أين الخروج، فهذا يشير إليَّ يمينًا، وذاك يشير إليَّ يسارًا، وأنا أجرب كل شيء ولا أصل.

وفي النهاية قررت التخلي عن السيارة والخروج على قدمي، فمشيت حاملًا الشوك والسكاكين في يدي، لأفاجأ بمطار يستقبل الناس الراغبين في الخروج من الحي، ووجدت نفسي سريعًا فوق سلم الطائرة، وأدواتي في يدي مكشوفة، لم يعترضني أحد، فوقفت على السلم حائرًا أي مطار هذا الذي يقبل المسافرين بالأسلحة، وأي حي هذا الذي لا يمكن الخروج منه إلا بطائرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧٦

لا أدري من منا سعى إلى الآخر، أنا؟ أم نفسي؟ تلك التي لا يبارحها الضجر، حتى إذا طلبت بلسان الحال أن تنفصل بالوجود أجيبت، فإذا بها على هيئة امرأة منقبة، مغوية، وعندما جاءت كشفت كل شيء، ثم جلست أمامي تحكي.

قالت إن داءَها الضجر، فهي لا تستطيع مهما كان اقتناعها قويًّا بشيء أن تصبر عليه، ولأنها تعلم أنني متردد فقد طلبت الانفصال، وأنا لم أحزن أو أغضب، بل أخذت أشجعها، فجلبت لها الشراب، والذي كانت تشربه بخوف في البداية، ثم بجرأة من لم يعرف الخوف أبدًا.

فاقت طلبات نفسي يومًا بعد يوم الحد الذي علمتها إياه، فمضت غير عابئة حتى انخلعت عن مداري تمامًا، وأصبحت شمسًا تنير الأفق ويتحدث عنها الناس، ثم ينظرون إليَّ بلؤم أتجاهله، وقد فهمت نظراتهم، وأصبحت حريصًا أن أتحاشاها.

وكل عام نتقابل في عيد ميلادها، فألاحظ التغير الذي طرأ عليها منذ المرة السابقة، وأستطيع أن أخمن ماذا كانت تفعل، لكني أبدًا لا أسأل، إلى أن جاء يوم، فثملت ثم صرحت لي بكل شيء، وأنا تصنعت عدم الاهتمام حتى لا تنتبه، وأخذ غضبي يتصاعد مع كل كلمة تقولها، وأنا أكتمه وأصبر صبر الإله، مرددًا بصوت داخلي أنها ليست نفسي التي أعرفها.

ثم في اليوم الموعود جاءت إليَّ، وأخرجت من حقيبتها عقدًا لم أره من قبل، فدسته لي في جيب قميصي وأطالت بقاء يدها به، قالت إنه كان هديتي لها، وإنها الآن لم تعد تريده «خلاص». قالتها بضحك وحميمية وعيناها الجريئتان في عيني، وقبل أن تغادر ظللت ناظرًا إلى وجهها المبتسم، باحثًا عن معنى إعادة العقد، وعن سبب بقاء جيبي دافئًا بعد خروج يدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧٧

لا أدري كيف جرؤت على الإمساك بذلك الجرو الأسود على الرغم من خوفي من الكلاب، لقد كدت أن أتعثر فيه في الحقيقة، وعندما نظرت مكان قدمي رأيته، ضعيفًا لا يكاد يقوى على الوقوف، وبجانبه في ذلك الممر الضيق رأيت كلبًا آخر أبيض اللون، على كامل جسده خطوط زرقاء عريضة لم أرَ مثلها من قبل، وتشبه إلى أبعد حد قماش الشماسي.

الكلب الأبيض كان أكبر قليلًا وصحته أفضل من كلبي الذي اخترته، وهناك جلست على مصطبة إسمنتية في الممر الذي وجدته فيه، وجاء على أثري شاب أمسك بالكلب الأبيض وقال إنه خبير بالكلاب، ثم أمسك بكلبي يتفحصه، حيث قال متحسرا إن عينه كادت أن تُفقأ، ثم إن عضوه التناسلي مقطوع ويحتاج إلى عملية جراحية لكي يتمكن من البقاء على قيد الحياة، سألته وماذا أفعل وأنا لا خبرة لديَّ على الإطلاق، فتحسر ثانية ثم قال لي أن أدعه وشأنه وكفى.

تركت الكلب من يدي ورجعت إلى المصطبة فإذا بي يأتي إلى وهو يهز ذيله، وهنا لم أتمالك نفسي ورفعته لأضعه على حجري مربتًا على رأسه. فاجأني الشاب بسؤال عمَّ إذا كنت أريد الكلب الأسود بشكل نهائي بدلًا من الكلب الأبيض، وقال وهو يمسك بالأخير إنه من النوع الفاخر حقًّا وثمنه غال.

هنا خفتت فرحتي باختياري، وفكرت في أن أقول له إني لم أحسم الأمر بعد، فأنزلت كلبي إلى الأرض وصمتت برهةً، فأكمل عليَّ الشاب بقوله إنه طبيب بيطري وقد يستطيع أن يعالج الكلب، كانت المقايضة واضحة، فنظرت إلى كلبي الذي كان قد عاد إلى ثانية يهز ذيله، هنا كان قراري قد حُسم فقلت له إني سآخذ الكلب الأسود في كل الأحوال، وإن اسمه منذ هذه اللحظة روكي، وسألته أن يرشدني عما أطعمه، فأخبرني بأنواع من الأطعمة تحتاج إلى أن تطبخ في المنزل، فقلت له إني سأذهب فورًا وأعود أجهز الطعام، وهنا قام روكي فوجدته قد كبر فجأة بدرجة ملحوظة، وكاد أن يصبح سليمًا معافًى دون عملية، حتى عينه اليُمنى قد تحسنت كثيرا، فتعجبت كيف يحدث هذا في لحظات، وهو لما رآني خارجًا أراد يخرج معي، لكني أخبرته أني ذاهب لشراء الأكل وعليه أن يبقى ساكنًا، ففعل، وهنا هلل الشاب بتعجب من إطاعة روكي لي، وفهمه لكل كلامي دون سابق تدريب، وأنا خرجت مبتسمًا في منتهى الفرح بنصيبي، غير ناظر إلى ثمن الكلب الآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٧٨

لا يزال التليفون المنزلي موضوعا على الأرض كما تركته بالأمس، كما أني وجدت المتر المعدني الطويل موضوعًا على «الأرش» الفاصل بين غرفتي الاستقبال، لم يكن لديَّ شك في أنها مَن أخرج المتر ليقيس به أبعاد الشقة، لقد فتحت الدرج الصغير إذنْ، فلماذا أنكرت ذلك عندما سألتها؟

ليس هذا كل شيء، يوجد أيضًا «جاكيت البيجاما» الذي ارتدته طوال فترة إقامتها معي، لونه مزيج من البني والأسود وتصميمه على شكل كاروهات، بدت جميلة جدًّا عندما ارتدته، فقد كان يصل إلى أول فخذيها، فاكتفت به ولم ترتدي البنطلون الذي أخرجته لها من الدولاب.

كنت أشاهدها رائحة غادية بين الغرف وهي تنظر للأثاث القديم وتفكر ما الذي ستبقيه منه وما الذي ستستغني عنه، أعجبتني فكرتها عندما قالت إنها ستحول كنبة الاستقبال الكبيرة إلى كنبتين صغيرتين، قالت إنها تحب المساحات الفارغة وأنا وافقتها، استدارت لتذهب إلى المطبخ وأنا استدرت أنظر إليها وهي تسير.

ظللنا نتحدث عن خططنا للمستقبل ولم يفتنا تنسيق البلكونة والتقليل من عدد أصص النباتات الموجودة وتحويلها إلى أحواض معلقة على السور لتوسيع المساحة.

عندما دخلنا غرفة النوم أدهشتني بقولها إن ميلي للسيطرة واضح جدًّا، وأنه يتبدى جدًّا في الصورة الفوتوجرافية المعلقة على الحائط عن رأس السرير، صورة مشبك غسيل يمسك بملاءة بيضاء منشورة على الحبل، تشغل الملاءة الناعمة النصف الأسفل من الصورة، بينما النصف الأعلى قد اقترب لونه من الأسود نتيجة لاستخدامي عدسة الزوم مع التركيز على المشبك عند ضبط المسافة.

توقعت المتاعب ولم تتأخر.

اليوم لم يبقَ لي منها غير رائحتها في جاكيت البيجامة، وتليفون الشقة الذي غيرت مكانه ووضعته على الأرض، والقهوة التي انسكبت منها على البوتاجاز، وجفت.

سأنظف الشقة بنفسي في الغد، وسأحتفل بنفسي من جديد، وسأغسل ملابسي التي تناثرت في الحمام وعلى منضدة المكواة وفي غرفة النوم، لكنني سأنسى جاكيت البيجامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٧٩

بعد فراغنا من الحب مباشرة تقلبت فوق السرير في سعادة حتى لامس وجهها المخدة، ثم سكنت إلى الأبد. فكرت كم سيكون الأمر عصيبًا على أسرتها خاصة أنهم لا يعرفون عني شيئًا، لكني بدلًا من تضييع الوقت في الأسى بدأت فورًا في حل المشكلة.

لم أرني وأنا أحادث أهلها، ولا أذكر كيف امتلأ البيت بالناس، لكنني كنت أعلم أنها لا تزال بالداخل، جلست أمها في صمت إلى جواري وبجانبها ابنتها وابنها، وكنت أتوقع مشاكل متنوعة ورغبة في الانتقام، لكني لم أجد إلا الهدوء من كل الناس، وإذ ذاك بدأت وحدي في البكاء وهم ينظرون إليَّ في لوم صامت مشوب ببعض التعجب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٠

حلمت كثيرًا من قبل بالكائن الذي يقف على عتبة غرفة نومي وأحس به فأستيقظ منتفضا لأنه يحرمني النوم، صحيح أنه لم يكن يؤذيني، ولكن من يستطيع النوم بينما آخر يراقبه؟ ماذا يريد هذا الكائن ما دام لا يتحرك إذنْ ولا يؤذي؟

بالأمس حدث تطور تصعيدي في أول ساعات الليل، حيث جاءت امرأة هذه المرة، كانت رفيعة، ترتدي بذلة من قطعة واحدة، ضيقة للغاية، ذات لون واحد، كالتي ترتديها الممثلات اللاتي يقمن بدور «المرأة القطة».

أحسست أني أرى خيالا بجانب السرير فأيقظني الذعر نصف إيقاظه، ودارت المرأة حول السرير وأنا أجاهد جسدي ليقوم، فتحركت ساقي ولفظت الكوفرتة مرتفعة في الهواء كي تظل المرأة بعيدا، وإذ ذاك زادت المرأة في تحديها واستلقت بجانبي على السرير في مشهد أكروباتي، زاحفة من ناحية قدمي حتى لامس رأسها المخدة المجاورة ثم نظرت إليَّ مبتسمة. كانت صلعاء تماماً، وأنا لم أستطيع تحريك ساقي ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨١

ظللنا نتقابل بين الحين والآخر حتى بعد أن افترقنا، كل عدة شهور يكلم أحدنا صاحبه فنلتقي، وفي صباح اليوم التالي نعود إلى حالتنا التي اتفقنا عليها: القطيعة.

لقد تأكدنا قبلًا من استحالة استمرارنا معًا، أما سبب اللقاء المتقطع هذا فهو أننا نحاول في كل مرة أن نكون أصدقاء، لكننا كلما نلتقي أدرك أني أحبها، وهي أيضًا.

لم أرها منذ سنوات طوال، منذ أن توقفنا عن لعبة التظاهر بأننا لا نحب بعضنا البعض، لكني بالأمس فقط رأيتها ثانية.

كنا في سيارتها التي تركناها لنشتري شيئًا، وبعد سيرنا لوهلة معًا أخبرتها أني ذاهب لأطمئن على السيارة إذ إنها تركن في الممنوع، وعندما رجعت إلى حيث السيارة لم أجدها، فانتابني القلق والرغبة في إعادتها، أخذت أسير في الاتجاه العكسي فلربما نقلها رجال المرور، وعندما لم أجدها دخلت الجراج الكبير، وأخذت أبحث في كل الطوابق تحت الأرض، ثم في الشوارع المجاورة، وأسأل عليها الناس.

انقضى وقت طويل وأنا هائم في الشوارع أبحث عن السيارة، ثم أمسكت الموبايل لأطلب حبيبتي وأرى أين هي الآن، راوغني الموبايل وأخذت صفحاته تتقلب كالذي أصابه فيروس، وبعد وقت طويل آخر استطعت طلب الرقم فردت عليَّ، أخبرتني بأنها وجدت السيارة واضطرت للعودة للبيت، ثم حكت لي قصة طويلة عن أن حماها السابق قد أصيب وأن العائلة كلها معه في المستشفى، وأنه يحتاج لنقل دم وإلى إسعافات أخرى، وأفاضت في تفاصيل المشاكل التي يواجهونها.

كنت مدركًا من نبرة صوتها أن «الخروجة باظت»، ومع ذلك قررت أن أقطع الشك باليقين وأسمع ردها، فاقترحت أن نلتقي في لقاء قصير نشرب القهوة معا، ولكنها اعتذرت بأنها تشعر بالتعب بعد مشاوير المستشفى، ورأت أن نؤجل ذلك لوقت آخر، ولم يكن لديَّ شك في أنها تكذب، وأنها لا تزال خائفة من التورط العاطفي، أما عندما صحوت صباحًا فكنت مبتسمًا، لأني فجأة تذكرت رقم السيارة، بالرغم من مرور كل تلك السنين: ٥٧٩٢٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٨٢

استقليت تاكسيًّا في زيارتي للمقابر، وجدت أن من الغريب قليلًا أن تقود التاكسي امرأة شابة، وهي قد حادت بي عن الطريق قليلًا، ثم وقفت أمام أحد البيوت ذات الدور الواحد في ميدان يعج بالناس وقالت «هيا انزل».

- لكن ليس هذا هو العنوان المقصود.

- ولكن هذا بيتي أنا، وقد تعبت من البحث عن عنوانك المزعوم بلا جدوى، كأنه شبح أو خيال.

- إذنْ لن أدفع شيئًا، وسآخذ تاكسيًّا آخر من هنا يوصلني إلى وجهتي.

هنا ارتفع صوتها ولكن بحساب وهي تخبرني بأن دفعي لمبلغ عشر جنيهات لهو أمر محتوم، وأنا فكرت في عواقب مخالفة امرأة مثل هذه في ذلك الحي الشعبي فدفعت صاغرا، ثم وقفت في الميادين أبحث عن مخرج، فإلى أين يؤدي هذا الطريق وإلى أين يؤدي الآخر؟

أخذت أسير هائمًا على وجهي فلا طريق مما أسلكه يؤدي بي إلى شيء أعرفه، لا معالم محددة تقربني من معرفة أين أنا بالضبط، حتى الكوبري صعدته غير مرة، غير أني لم أرَ شيئًا في الأفق، فكنت أنزل ثانيةً إلى الشوارع أسير وأسير، وكل ما أراه أسواق مزدحمة، باعة خضار وفاكهة، نداءات من كل حدب وصوب، لكن ليس من بينهم شخص واحد يبدو أن لديه وقتًا للإجابة عن سؤالي:

- أين أنا؟

ابتسمت عندما لاح لي الحل، سأستقل تاكسيًّا آخر يخرج بي من هنا، وحتى إن لم يعرف مكان المقابر، فسأطلب منه أن ينقلني إلى أي ميدان رئيس، أخذت أحملق في التاكسيات القادمة من كل اتجاه، فإذا بها كلها مشغولة براكب واحد يجلس بجوار السائق ولا أحد ملتفت إليَّ.

عندما أدركني التعب أخذت أسير على غير هدى، وإذا بي أمام بيت المرأة ثانية، خبطت على الباب الخشبي بيدي ووقفت واهنًا في انتظار الرد، كنت أفكر أن أستعطفها لتوصيلي إلى مقصدي، أو أن تأويني لليلة واحدة أنام فيها من التعب على أن أعاود من الصباح الباكر، لكنها عندما فتحت الباب تسمرت وفقدت كل شيء كان في عقلي، بدت فاتنة من غير الوشاح الأسود، شابة غاية في الجمال والدلال، تلبس قميص نوم فاتح اللون مزركشًا بكل أنواع الزهور المستديرة بلون دم الغزال، لم أستطع أن أتكلم وهي ضحكت وسحبتني من يدي إلى الداخل وهي تقول:

- عساك أدركت الوجهة الصحيحة الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٣

أخذت أنظر إلى صورتها في موبايلي منتظرًا الممرضة التي قالت إنها ستنزل إلى الدور الأرضي ثم تعود. كانت قبل أن تنزل قد أدخلت الإبرة الدقيقة في شريان ظهر يدي اليمنى ثم وضعت بلاستر يثبتها ثم آخر يثبت الأول بعد أن طلبت مني غلق قبضة يدي وفتحها عدة مرات من أجل أن يظهر الشريان.

ظللت واضعًا ساعدي بأكمله -بعدما نزلت-على الدولاب إلى يميني مثبتًا كف يدي خوفا من أن تنزلق الحقنة أو يحدث شيء، فلقد شعرت بأنني وحدي في الدور بأكمله على الرغم من أني حضرت في الميعاد الذي حددته الدكتورة: الثامنة والنصف صباحا.

لم أرغب في أن أنظر داخل غرفة العمليات قبل أن يحضروا، لكني تذكرت السؤال الذي تكرر من الممرض في الأسانسير ومن الممرضة على باب الغرفة:

- المدام فين؟

- أنا جاي لوحدي.

انقضت عدة دقائق فقدت خلالها ثباتي، وبدأت أفكر في الخروج من المستشفى، يمكنني خلع الإبرة في أي صيدلية، وبالنسبة للتكاليف فهي مدفوعة من الشركة، أما ألم بطني وقولوني المستمر والمهلك فمن الممكن أن أتبع الطرق الصعب: أتوقف عن الطعام وأمارس الرياضة طول اليوم.

لم أجد شيئًا يرد إليَّ شجاعتى غير صورتها وهو تبتسم على صفحتها في الفيس بوك، قمت واقفًا، وضعت يدي اليُسرى في جيب بنطلوني الأيمن وأخرجت الموبايل. جلست وأخذت أبحث بين الصور عن وجهها الجميل ذي الكبرياء، وعندما حضرت الدكتورة من بعيد ومعها الممرضان أغلقت الموبايل وأنا أشعر بسعادة وأحس بأنها معي على نحو ما.

طلبوا مني أن أنام على السرير الجلدي الأخضر، وعلى جانبي الأيسر، واضعا يدي اليسرى خلفي، صحت محذرا إياهم بلطف:

- أهو ده اللي كنت خايف منه!

- ما تخافش خالص!

اقتربت مني الممرضة ومعها بخاخة بنج وطلبت مني فتح فمي، رشت داخل فمي كمية من البنج وطلبت مني بلعها، وضعت بعدها شيئًا في فمي كي لا يغلق، واستدارت لتضع قطارة البنج داخل فتحة الإبرة في يدي، بينما أمسكني

الممرض برفق، وما هي إلا ثوان إلا وفتحت عيني على أصواتهم وهم يقولون لي:

- خلاص.

- هو فات قد إيه؟

- ساعة!

رفعت حاجبى بينما ضحكوا.

قمت أقف فترنحت. انتظرت قليلًا ثم عاودت المحاولة، قالوا لي أن أستريح بالخارج حتى أفيق تماما، فجلست على نفس الكرسي، وفتحت الموبايل، كانت الصفحة مثبتة على صورتها، ورأيت تعليقا منها يقول:

- حمد الله على السلامة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٤

رأيت الرئيس يطلبني لمساعدته في القضاء على الفساد، وما إن بدأت العمل بكل همة، حتى حققت الإصلاح في محافظة الإسكندرية في زمن قصير، الأمر الذي نال إعجابه، فطلب مني تعميم التجربة في باقي المحافظات، الأمر الذي أزعج المناوئين، الذين كانوا يريدون أن يُنسب الفضل إليهم وليس إليَّ، فأشاعوا في باقي المحافظات أني مسنود، وأني اخترت المحافظة التي نشأت بها بناء على المحسوبية، وقال آخرون إنني أتلقى الرشاوي من أجل الإصلاح، فاشتعلت المظاهرات بالسخط على الرئيس، وصار يعبرني كلما مر بي وكأنه لا يراني، بعدما كان يرحب بي ويستمع إلى نصائحي، لكنني قدرت أنه مهموم بالمظاهرات التي تجتاح البلاد.

وزاد الأمر سوءًا أنْ عاد الفساد في الإسكندرية أقوى مما كان، ولم يعد بوسعي أي إصلاح، فتسللت خارج القصر خشية غضبه، خاصة بعد أن تدهورت الأمور إلى حد خطير، وآليت على نفسي عدم الظهور في مكان يذكره بى، ومتمنيًا في قرارة نفسي بألا يتذكرني بعد ذلك أبدا، أو يتذكر الإصلاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٥

تعرضت البلاد لخطر شديد، فقد قيل إن هناك عملية إرهابية بالغة الضخامة ووشيكة، ولما كان عملي في وسط البلد، البقعة التي تناولتها الأخبار باعتبارها مسرح الجريمة المرتقبة، فقد ذهبت إلى عملي متوجسا، وهناك وجدت الشوارع شبه خالية من المارة، ولم أستطع أن أجد أحدًا أثق فيه لسؤاله هل تمت العملية أم لا؟

ركنت سيارتي في سوق ضيق تجنبًا أن يطالها الانفجار، وظللت أمشي من شارع إلى شارع، ومن ممر بين العمارات إلى شارع صغير مسدود، وقلبي يحدثني بأن الانفجار وقع، فها هي الملابس مهترئة على الشرفات، وها هي البيوت العتيقة وقد كساها اللون الرمادي، أما القطط والكلاب، فما هو موجود منها ملقى في مداخل العمارات، ممزقًا أو محترقًا.

وإذ ذاك حانت مني نظرة إلى قدمي، لأكتشف أن بنطلوني قد احترق بفعل الانفجار، وأنه قد أصبح أثرًا بعد عين، ولولا قميصي المسدل على ساقي بالغا منتصف المسافة بين مفصل الفخذ والركبة ما أمكنني السير.

على أن الأمر لم يكن يخلو من شعوري بالعار، فقد أخذت أتفادى نظرات الناس القلائل الذين رأيتهم في طريقى عائدًا إلى السيارة، ولذلك غضضت بصري وأنا أمر أمام القهوة كي لا أرى أعينهم، على الرغم من أني كنت أحسها.

ثم قابلت المرأة ذات الجلباب البلدي الأسود، كانت تعبر الشارع، إلا أنها وقفت على الرصيف الذي في المنتصف بينما كنت في المكان نفسه عابرا الشارع إلى الناحية الأخرى، كان قميصي مدلًّى إلى منتصف ساقي، منتعلا حذائي، وربما لم تكن لتعلق المرأة، لولا أن رأت «الكرافت» الحمراء وهي مربوطة بعناية إلى القميص الأبيض، وعندئذ أفلت منها صوت من أنفها وهي ترمقني باحتقار وتنظر إليَّ من أعلى إلى أسفل، كانت تمصمص شفتيها بقرف، الأمر الذي حطم معنوياتي فأسرعت بالهرب، وكان أكثر ما آلمني هو أنني لم أستطع أن أشرح لها الأمر على حقيقته، بأن كل هذا بسبب الانفجار.

ما إن وصلت إلى سيارتي حتى أحسست بالراحة، وعلى الرغم من أن رجلًا بجلباب بلدي ظل ينظر إليَّ باسترابة وهو جالس على القهوة، فإني لم أعره كبير اهتمام، وقدت سيارتي عبر الحواري التي ضاقت عما كانت عليه في الصباح، حتى وصلت إلى الشارع الرئيس، وصورة المرأة لا تبرح خيالي، ثم إني بدأت أشك أنا نفسي في الانفجار، فإذا كان قد وقع، فكيف لهذه المرأة أن تصفر بفمها وتتمايل في مشيتها بغنج، وهي تحمل أصناف الفاكهة

والخضار غير مبالية؟ وإذا كان قد حدث، فلماذا لم يشعر الناس «البلدي» بالانفجار؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٦

كان حفل توديع النبيذ، فالأسعار قد اشتعلت، وقد عقدت العزم أن أجعله احتفالًا يليق بالمناسبة، فدخلت إلى محل كبير فاخر كأنه السوق الحرة، واشتريت زجاجة من أفخر أنواع النبيذ التي لم أشربها من قبل، وعندما خرجت إلى الشارع خطر لي أن أعود لشراء المزيد -ولكن من أنواع أخرى- تعزيزًا للاحتفال.

سنجتمع كلنا في شقة أحدنا، شاسعة تكفي أعداد الراغبين في التوديع، أرضية الشقة بالكامل من الخشب الباركيه، وتشبه صالة الاستقبال فيها قاعة من قاعات الفنادق، تتناثر في أركانها وإلى حوائطها نقاط الضوء غير المباشر، ملفوفة بأقمشة حريرية الملمس متنوعة الألوان، تغلب عليها ألوان الأحمر والوردي والأبيض: ألوان النبيذ.

لما خرجت إلى الشارع ورغبت في الدخول ثانية لم أشأ حمل الحقيبة معي ثانية إلى الداخل، تركتها على الرصيف المواجه للجامع قائلًا لنفسي: مَن ذا الذي سيسرق النبيذ من روَّاد الجامع؟ ثم خرجت فوجدت الزجاجة قد تم استبدالها بزجاجة أخرى من أردأ أنواع الكونياك المصري.

جن جنوني، وذهبت إلى القسم أحرر محضرًا بالواقعة، وهناك وضعت الحقيبة على الأرض، فطلبوا مني فتحها أمامهم، ففعلت كما طلبوا ثم تركتها وذهبت لاستكمال الإجراءات، ولما عدت سألني المأمور:

- أي محضر؟

أخبرته بأنه محضر سرقة زجاجة النبيذ واستبدالها بشراب رخيص، وتعزيزًا لمصداقيتي أخرجت من جيبي إيصال شراء النبيذ، فنظر إليه المأمور، ثم قال:

- ولكن أين الزجاجة الرخيصة إذن؟ الحقيبة فارغة.

جن جنوني مرة ثانية، وأخذ صوتي يعلو مهددًا بتصعيد الأمر، وأن هناك الكثير من الهيئات المعنية بحق الإنسان في الشراب، وأنني لن أخرج من هذا المكان إلا وحقي معي، ولدهشتي لم يقاطعني أحد، بل كانت الابتسامات هي كل ما أراه على الوجوه، وعندما انتهيت قال لي المأمور في أدب شديد:

- طب اتفضل استريح.

رجعت إلى حيث حقيبتي والكرسي الذي كنت أجلس عليه، جلست وفتحت الحقيبة فإذا بداخلها لفافة لا أعرفها، فسألت المأمور عنها فأجابني بهدوء واثق:

- هذه لفافة المخدرات التي وجدناها في حقيبتك، إذا كنت مصرًّا على عمل المحضر وإهدار وقتنا فيما لا يفيد.

كانت معضلتى بأني لو أصررْت على عمل المحضر فسأوضع في السجن بتهمة حيازة مخدرات، وإذا تنازلت فسأتهم من قبل أصدقائي بالخضوع للشرطة، أما إذا عدت إلى الجامع أسال عمن عساه يكون سبب المشكلة فسأقابل بالسخرية وبالضرب، وفي أحسن الأحوال سيقول لي أهدؤهم أخلاقًا:

- احمد ربنا، دي علامة منه إنك تبطل شرب.

أما إذا عدت إلى بيتي، فسأحرم نفسي من حفل التكريم، ليس هذا فقط، بل سيكون رأيي في نفسي بأني الرجل الذي تلقى الصفعات من الجميع، وفي نفس اليوم، دون أن يستطيع الرد، ثم إني في النهاية سيكون عليَّ ترتيب حفل آخر لأنه لا بد من توديع النبيذ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٧

أصر الضابط الذكي أني تعاونت معهم قبل ذلك، إذنْ لمَ لا أتعاون الآن؟ هذا الضابط لم يكن يرتدي زيًّا رسميًّا، ولم يرضَ حتى أن يبرز بطاقة التعريف الخاصة به عندما طلبتها، وأنا –على الجانب الآخر-لم أعطه أي معلومات، ليس لعدم إيمانى بما يقوم به، وإنما لسبب أبسط بكثير، وهو أنني لا أفهم السؤال.

لقد كنا في احتفال صاخب مقام في فندق كبير على الشاطئ وكنت المنظم للاحتفال، وكان الجميع يرقص ويلهو حتى جاءني أحد العاملين يخبرني بأن السيد في انتظاري، هناك وقفت معه في التراس المطل على البحر الأزرق وعرضت عليه أن نذهب إلى المكتب لنتكلم فرفض بحجة إن وقته ضيق، سألته عن بطاقته فبان عليه غضب مكتوم جاهد في إخفائه بابتسامة غاية في البرود، وأنا تغاضيت عن هذا وذاك، ووقفت في انتظار السؤال بأمل الخلاص السريع فإذا به يسألني:

- ما سر اللون الأزرق الموجود في شعار المهرجان على هيئة مسدس؟

احترت قليلًا ماذا أقول، ثم بدأت أشرح له أن الشكل ليس لمسدس، وإنما هو لحرف ستة، أي أن هذا المهرجان هو السادس، أما بالنسبة للأزرق فهو لون كسائر الألوان، فإذا به يقاطعني قائلا:

- هكذا أنت لا تتعاون.

- وما الخطأ فيما قلته؟ أليس ما قلته صحيحًا؟ وإذنْ قل لي أنت ما الإجابة التي تتوقعها.

- الحقيقة.

أخذت أعدد له أوجه استخدامي للون الأزرق، فهذه قمصاني، وهذا لون الحائط الجديد الذي اخترته لديكور شقتي، بذلتي أيضًا زرقاء، ثم إن الألوان ملك لجميع البشر، فبالضرورة سوف يجد المرء في أعلام الدول –حتى المعادية لبعضها-ألوان متطابقة، أما عن الشكل فهو ليس بمسدس كما قلت، وحتى إن كان، فهل بالإمكان أن ينطلق منه رصاص؟ ولماذا؟ وعلى مَن؟ ثم سألته بنفاد صبر كامل:

- ما التهمة بالضبط؟

- ليست هناك تهمة يا عزيزي، لكن الأمر الذي يسوؤنا حقًّا هو عدم رغبتك في التعاون، سأبلغ الرؤساء، لكن عليك أن تتذكر أن التعاون أمر حتمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٨٨

استيقظت مبكرا كعادتي، وأديت طقوس الصباح، ثم نزلت إلى العمل، على الكوبري كانت هناك سيارة تسير إلى يميني، تقدمت لتسبقني قليلًا. وجدت السيدة تخرج يدها اليسرى وتظل تهزها إلى الأسفل مشيرة إليَّ بعدم المرور. تعجبت.

مرت السيدة فرأيت الذي أزال عجبي، سيارتها قديمة متهالكة، ولذلك فليس من المستغرب ألا تكون بها إشارات ضوئية صالحة للاستخدام.

أصبحت السيدة أمامي تماما، ورأيت على المقعد الخلفي ابنتها ذات السنوات الخمس، وهي تنظر إليَّ بعين المسؤولية، وتشير إليَّ بيدها، من وراء الزجاج الخلفي للسيارة، بنفس طريقة أمها، في تحذير إليَّ بألَّا أمرَّ.

بعد العمل كنت في النادي، أسير على التراك محاولًا تخفيف الوزن، تقابلني أسرة كاملة تسير عكس الاتجاه، الأم الشابة في مواجهتي من بعيد، الزوج خارج التراك، يفصلهما السور المعدني الواطئ، والبنت الصغيرة بجانب أمها، أما الولد، والذي يبدو في نفس عمر البنت تقريبا، فيسبق الجميع في اتجاهي، والأم تقول له:

- انت سريع قوي يا مروان مش عارفين نحصلك.

الولد يسرع كلما سمع أمه، ويواصل مجهوده الجبار ليحافظ على المسافة بينه وبين أسرته، الأم تبتسم، وأنا نظرت لها ولم أستطع أن أمنع ابتسامي، ثم حولت نظري إلى الأب الشاب. كانت الشمس مشرقة بهدوء بعد العصر، والنباتات تهتز قليلا بفعل رياح بسيطة، ولذلك كان الجو غير حار ولا بارد.

بعد لفتين تاليتين رأيت الأم وحدها، يسير أمامها ابنها الصغير، لم تكن تبتسم، ولم يبد عليه أنه يحاول أن يسبقها، بل على العكس كان يسير بتلكؤ، وهي كانت ساهمة، والشمس قد غابت.

عندما أنهيت لفاتي السبع ذهبت إلى غرفة تغيير الملابس لأستحم، استقبلني رجل الأمن بابتسامة إكبار لم أفهمها، كان حريصًا على مدِّ يده للسلام، قال لي وهو يبتسم بود بالغ مع انحناءة بسيطة للأمام:

- أهلًا يا أفندم.

لاحظت أنه منذ عشر سنوات فقط لم يكن ليفعل نفس الشيء، بل وربما رمقني بنظرة المتفحص.طردت صورة الرجل من خيالي بمجرد مغادرتي إياه، وكنت راضيًا عن نفسي وأنا أغادر المكان بعد الحمام عندما تجاهلته، على غير عادتي.

أسير بسيارتي نحو بيتي، وفي شارع ضيق أقف متعطلًا أمام سيارة أجرة واقفة ينزل منها ركاب، تجيء ورائي سيارات أخرى ويسكت الجميع أقل من دقيقة ثم تبدأ الكلاكسات، حتى أنا الذي لا أميل إليها، بدأت «أكلكس».

أخرج سائق التاكسي يده اليسرى ورفعها إلى فوق، أعلى من سقف سيارته، وضم أصابعه الخمسة، ثم بدأ يرفع يده ويخفضها، في مسار مرئي يراه قائدو السيارات الخلفية.

رجعت إلى طبيعتي وسكنت تمامًا، خرج رجلان من التاكسي، اتجه الأول إلى مدخل العمارة مباشرة، والثاني تناول شيئًا من فوق التاكسي وضعه على الأرض، كان كرسيًّا للمعاقين، فرد الرجل الكرسي ثم انحنى إلى داخل التاكسي ناحية الكرسي الأمامي. وضعت كوعي على شباك سيارتي وأسندت جبهتي على راحة يدي المثنية، ورحت أفكر في الطفل الذي كان يريد أن يسبق أبويه. مد الرجل يديه الاثنتين وانحنى أكثر داخل التاكسي، ثم أخذ يخرج بهدوء حاملًا سيدة عجوزًا مقعدة. كانت يده اليسرى من وراء ظهرها، واليمنى من تحت ركبتيها.

أصبح الشارع صامتًا بلا كلاكس واحد، ورأيت المرأة العجوز ضئيلة الحجم وهي تستقر فوق الكرسي المتحرك، ثم يدفعها الرجل برفق وراء التاكسي، يدفع الأجرة للسائق، ثم يعود إليها يصعد بها الرصيف، فيرفع السائق يده اليسرى معتذرا، وينطلق إلى الأمام، وننطلق وراءه بلا كلاكسات، بينما رحت أصرف خيالي إلى المشاهد الأربعة السابقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨٩

قبل حلول شهر رمضان بيومين بدا البار خاليًا إلا من زبون وحيد، بدأ الزبون يشرب البيرة ببطء بينما يدير رأسه في المكان. أما البارمان فكان مختفيًا في الحجرة الجانبية يشاهد التليفزيون القديم، المستقر فوق رف عال. فكان الزبون يضطر في كل مرة يطلب فيها زجاجة جديدة إلى القيام من مجلسه والذهاب للبارمان والإشارة له بإصبع الإبهام بما معناه: زجاجة واحدة أخرى، ثم العودة إلى مجلسه في انتظار الزجاجة، إلا أنه بعد ساعة أو أكثر جاء زبون جديد، فجلس بعيدًا عن الزبون الأول. بعد دقائق أخرى كان الزبون الجديد قد بدأ في الشراب ثم بدأ يعبث في موبايله.

بدا صوته خفيضا وهو يحدث شخصا بعد الآخر مهنئا بقرب حلول شهر رمضان. كانت المكالمات باردة على نحو ما، مما أعطى انطباعا للزبون الأول بأنه يحدث زملاء في العمل أو عملاء يجاملهم. استمر الزبون الجديد على ذلك فترة كلم فيها أشخاصًا كثيرين وشرب زجاجتين ثم بدأ صوته يعلو قليلًا بتأثير الشراب، وتغييره لنوعيه الأشخاص الذين يحادثهم. حيث بدأ يحدث أصدقاءه بلا تهنئة، بل يسألهم مباشرة إن كانوا سيحضرون تلك الليلة، لكن لم يجبه أحدهم بالإيجاب.

بدأ الزبون الأول يفقد اهتمامه بالمشهد، فحول نظره إلى حيث اللوحة الزيتية المعلقة على الحائط المقابل وبدأ يتخيل نفسه داخل عالمها. وكان –بين الحين والآخر-يسرق نظره سريعة على الزبون الجديد، ثم بدأ يسمعه وهو يتكلم ثانية، لكن صوته بدأ ينخفض تدريجيًّا مع كل رشفة، حتى لم يعد يسمع تقريبًا، ومع مرور الوقت كان الزبون الأول قادرًا على رؤية شفتيه تتحركان بلا صوت.

تراصت الزجاجات على المنضدتين، وكان متردِّدًا هل يغادر أم يطلب زجاجة أخرى. أشار الزبون الجديد إلى البارمان طالبًا المزيد. أحضر البارمان الزجاجة الإضافية فالتقت عيناه بعينَي الزبون القديم، الذي أشار أيضًا إلى البارمان طالبًا زجاجة هو أيضًا.

أحضر البارمان الزجاجة، ثم عاد إلى مكانه يتفرج على التليفزيون، كان صوت التليفزيون خفيضًا، وما لم يكن الزبون الجديد يتحدث فسيكون الصمت هو سيد المكان، لأن الزبون القديم لا يتحدث في التليفون، بل كان كل ما يفعله هو أن يصب من زجاجة البيرة في الكوب، ومن الكوب إلى فمه، ثم يضع الكوب على المنضدة ويعاود الكرة، يرفع الزجاجة إلى أعلى قليلًا حتى تحدث البيرة صوتًا عند نزولها في الكوب، أي شيء يكسر الصمت.

أخذ الزبون القديم يفكر في أي منهما سيغادر أولًا، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة حينما رأى الزبون الجديد يضع موبايله في جيبه ويسرح قليلًا، عرف أنها لحظات المغادرة، وقرر أن يغادر قبله فترك ما كان متبقيًا من البيرة، وذهب إلى حيث يجلس البارمان بجوار الباب. لم يسأله الحساب، بل أخرج نقوده من جيبه وأعطاه ورقة مالية كبيرة تزيد عن الحساب، ولم يأخذ الباقي، ولم يلق السلام على البارمان، بل خرج سريعا، دون أن يلتفت وراءه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩٠

أخذ القط الأسود ينثني ويتلوى، ويصطدم رأسه بالأرض، وهو معلق من ذراعه تحت شاسيه السيارة السريعة، بينما هي ماضية في طريقها فوق المحور لا يحس سائقها بشيء.

كان الوقت صباحًا، وأنا أقود سيارتي متجهًا إلى عملي، وقد قابلت زميلًا يقف على جانب الطريق منتظرًا «توصيلة». تبادلنا التحية فوقفت له حيث ركب معي، وأخذنا نتحدث.

قال لي إنه في العادة يركب مع زميل آخر، لكنه تأخر اليوم، وقلت له إني رأيته من قبل على المحور، وأشرت له إن كان يريد أن يركب لكنه لم يرني، وهو قال إنه غير متذكر الأمر، وأنا لم أعلق، حيث ظهرت أمامي فجأة السيارة المعلق في أسفلها القط، فأخذت أدقق النظر فيما إذا كان معلقًا من مخلبه في شاسيه السيارة أم من ذراعه، وتهيئت لاحتمال أن ينفصل عن السيارة ويصبح تحت عجلات سيارتي أنا، في الوقت الذي فكرت فيه أنه لا يمكن أن يكون حيًّا بعد كل هذا، لكن كيف التأكد؟

كما كنت واثقًا أن زميلي يرى ما أراه، وإذنْ فلمَ لا يعلق على المشهد؟ لقد كنت من ناحيتي حريصًا على عدم إثارة الموضوع؛ لأنه أكبر من احتمالي، لكن ماذا عنه؟

أخذ الرجل يحدثني في موضوعات العمل، وكيف يضغط رئيس المؤسسة المصروفات، حتى جار على مكافآت الموظفين، كنت متألما مثله من موضوع تخفيض المكافآت، لكني في الوقت نفسه كنت مشغولًا بمصير القط، هل لا تزال به حياة؟ إن كان هذا فما حجم الألم الذي يتعرض له في تلك اللحظة؟ وكيف بوسعي إنقاذه؟

كان الحل الوحيد هو اللحاق بالسيارة الأخرى حتى أصبح إلى يسار السائق ثم محادثته، ولكن كان هذا أيضًا ينطوي على مخاطرة الموت، فلا يمكن فعل هذا على المحور السريع.

سألت زميلي مقاطعًا حديثه:

- إيه اللي تحت العربية هناك ده؟

- ده كيس نايلون أسود.

واصل زميلي بعدها حديثه الناقم على رئيس المؤسسة، فقال إنه يتخذ قرارات تعارض ما هو موجود في اللائحة الداخلية، ويعتمد على القمع لتخويف الناس أن يعترضوا على قراراته، وإنه إنما يفعل ذلك لإرضاء الجهات العليا، ثم

تطرق إلى القانون المحتمل للمعاشات، وقال إنهم لو أعطوه نسبة معقولة من راتبه الذي يتقاضاه الآن كمعاش فإنه سيستقيل من الغد، ثم سألني عن رأيي، فقلت له إني أوافقه بالطبع، وإن هذا حال الجميع، وأخذت أتمتم بكلام لم أتذكر منه شيئًا بعد ذلك، فقد كان عقلي مشغولًا بالقط، حيث كان لا يزال بإمكاني رؤيته، ينثني ويتلوى، ويصطدم رأسه بالأرض، وهو معلق من ذراعه تحت شاسيه السيارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩١

لا أعرف بالضبط متى بدأت أسمع (يا حاج) من الناس إذا ما ناداني أحد في الشارع. لكن بالتقريب فإن ذلك يعود لحوالي سبع سنوات مضت. كنت خارجًا من بيت صديقنا في بولاق متجهًا إلى الشارع الرئيس قاصدًا وسط البلد عندما ناداني أحد الشباب في الزحام: - يا حاج!

أتذكر جيدًا كيف سمعت هذه الكلمة ثلاث مرات قبل أن ألتفت وأدرك أن هذه الكلمة موجهة إليَّ. كان الشاب وقتها تحت العشرين وقد رأى الموبايل في يدي فكان يسألني عن الساعة.

ولأكن صريحًا فقد أصابني غم شديد بعدما أجبته ومشيت. وكنت أوشك أن ألومه على اللقب الذي تطوع بإهدائي إياه ورأيته غير مناسبٍ لي. لكني لم أفعل بل مشيت وأخذت أفكر في المسألة بطريقة منطقية حتى هدأت تمامًا وأيقنت أنه ليس في الأمر ما يسوء على الإطلاق، وأنه –أي الشاب-لم يجد كلمة مناسبة يناديني بها إلا لقب الحاج، ومما عزز الهدوء داخل نفسي تذكري لحقيقة أن لقب الحاج هو لقب منتشر بكثرة في الأوساط الشعبية، وأنه قد لا يشير في كل الأحوال إلى تقدم السن، وإنما كثيرًا ما يقصد به إبداء الاحترام الواجب.

وعندما مرت سنوات أخرى بدأت أسمع لقبًا جديدًا، ولكنه من الشابات هذه المرة (يا عمو). أول مرة أسمعها كانت في شهر رمضان. وكنت قد ذهبت إلى حديقة الحيوان في الجيزة أصور بعض اللقطات الفوتوجرافية للمجلة التي أعمل بها. واخترت شهر رمضان لخلو الحديقة تقريبًا من الروَّاد مما يسهل عليَّ اختيار اللقطات المناسبة، وإعادتها بسهولة إذا اقتضى الأمر.

اقتربت مني فتاة جميلة من بعيد وعلى شفتيها ابتسامة أجمل وأنا استغربت، واحترت ما الموضوع ونحن في رمضان، وحينما سمعت صوتها أخيرًا قالت: - الساعة كام يا عمو لو سمحت؟

اندهاشي كان ضخمًا هذه المرة. أنا لست (عمو) على الإطلاق. رددت عليها بسرعة وانصرفت مداريًا وجهي عنها، وأخذتُ أفكر ثانية في الموضوع، لكني لم أستطع هذه المرة الوصول إلى تفسير منطقي، أو لأقل أني أوقفت التفكير في الموضوع باعتباره لم يكن، وأخذت أركز في عملي.

بعدها ربما بشهر كنت في حفلة موسيقية بساقية الصاوي، وفجأة وجدت صديقين قديمين لم أرهما منذ سنوات. بعد الأحضان والضحكات سألتهما: قاعدين فين؟

أشار أحدها إلى مقعدين خاليين بجوار فتاتين وقفتا تنظران وتبتسمان.

قلت له بهدوء:

- ومين المزتين دول؟

- دول بناتي. الكبيرة انت عارفها «رحمة». مش فاكرها؟

عندما كانت رحمة صغيرة كنا نذهب كثيرًا إلى النادي. ننزل حمام السباحة. وفي يوم كانت مع أمها كاميرا صغيرة. أخذت تصورني بها وأنا ألعب مع «رحمة» وأقذف بها في المياه وهي تصرخ فألقفها، ثم أضعها على أكتافي فتقف ثم تقفز في المياه. كل هذا وأبواها مطمئنان جيدًا لحسن رعايتي لها. حفظت هذه الصور في الألبوم القديم، ثم حولتها أيضًا إلى صور رقمية العام الماضى لمزيد من المحافظة عليها.

ناداها صاحبي:

- تعالي يا رحمة، سلِّمي!

- أهلا يا أُنكل.

قلت لها وسعادة حقيقية بها تملؤنى: - لا بصي بقي، أنا مش أُنكل أبدًا أبدًا.

صاح صديقى وهو يشير إليَّ بمرح: - ده تقوليله (يا سامح) كده على طول.

أخذتنا الذكريات، فصرنا نتحدث تقريبًا في وقت واحد ونضحك، حتى أوشك العرض على الابتداء، فسلمت عليهم راجعًا إلى مقعدي مع الشلة التي جئتُ معها، وأثناء سلامي على رحمة وجدت شفتيها تتمتمان بصوت خافت حتى لا يكاد يسمع. وبلسان متلعثم استطاعت البنت نطق كلمتين في وقت واحد تقريبًا: «سامح» و«أنكل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩٢

كان الميدان يغص بالناس من كل الأنواع، فتيات جميلات يبعن معروضاتهن الفنية من لوحات تشكيلية، ونباتات منزلية موضوعة في أصص من الفخار، ومجموعات شبابية تلتف كل مجموعة منها أمام شاشة عرض، أما أنا فقد وقفت أمام إحدى الشاشات أتفرج على الفيلم الذي كان قد بدأ لتوه، كان يعرض مشاهد من الثورة، صورًا ومشاهد ميدانية خاصة بالمصابين، وأخرى تبين جر أحد الشهداء عبر إسلفت الشارع، إلى أن تم وضعه قرب الرصيف بجوار مقلب زبالة.

على الجانب الآخر فتيات يجلسن بهدوء أمام معروضاتهن من حلي نسائية رخيصة الثمن، وإن كانت لا تخلو من ذوق حميم، بدا واضحًا من شكل الفتيات وشكل المعروضات أنها منزلية الصنع.

وفي أول الميدان كان المسرح قد أُعِدَّ للفرقة الموسيقية التي ستغني بعد قليل، وسمعت صوت كمان وحيد في البداية، كان صاحبه يضبط التون، تبعته بقية الآلات، لفت نظري أن الجملة الموسيقية التي أراد بها صاحب الكمان تجربة آلته بها كانت جملة حزينة من مقام الصبا.

أخذت أجوب أنحاء الميدان، وجدت شخصًا يجذبني برفق من كُمّ البالطو، التفت إليه، وجدته صديقًا قديمًا من وسط البلد، سافر منذ عدة سنوات إلى إنجلترا وهناك درس قليلًا ثم عمل أخصائيًّا نفسيًّا لتأهيل المشردين للعودة إلى المجتمع من جديد، تزوج من فتاة أحلامه الإنجليزية والتي كان قد عرفها في القاهرة، هنأته بعيد القيامة، وتبادلنا آخر أخبار القاهرة، واتفقنا على اللقاء آخر الأسبوع.

وصلت إلى منصة حفل التوقيع، كانت المعروضات الأساسية ثلاثة كتب كتبها مائة كاتب بمناسبة مئوية الروائى الكبير، وبصفتي أحد الكتَّاب المائة عرَّفني صديقي مدير التحرير على سيدة جميلة تشرف على المكان، وقال لي إنني يجب أن أبقى قليلًا كي أوقع للناس على الكتب التي يأخذونها، فهمت أن أي كاتب متواجد في المكان يمكنه أن يوقع للجمهور، كان نصيبي سيدة رائعة الجمال، كانت فرحة جدًّا أنها وجدت كاتبًا يوقع لها على كتاب أخذته، قلت لها إن الأمر عادي، وفي الواقع كنت مندهشا من فرحتها، يظن كثير من الناس أن الكاتب شخص يفهم أكثر منهم، ومما يعزز هذا الشعور تلك المنصة التي يجلسون إليها في حفلات التوقيع.

أخذت جولة أخرى في المكان، وأخذت أقف أمام المعروضات في تسكع لذيذ، إلى أن وجدت صديقًا لي في مواجهتي، سلم عليَّ ببشاشة، ثم قال لي

وابتسامته كما هي:

- يا للا معلش بقي. البقاء لله.

أول ما خطر لي أنه يتحدث عن الثورة، ويبكت المجلس العسكري، خاصة وأن الفيلم الذي يتضمن المشاهد البشعة كان لا يزال معروضًا، لكني صمتُّ تمامًا ولم أشأ مقاطعته، وانتظرته في صبر أن يكمل جملته فأكملها:

- شاعرنا الكبير تعيش انت.

صرت أتجول وحيدًا في الميدان بلا رفقة من أحد. كانت الضوضاء تملأ المكان، من موسيقى وطبل وصيحات شباب. وجدت صديقتي الروائية فأخبرتها بما سمعته، بان عليها التأثر وأخذت تقول كلامًا لم أفسر معظمه، غادرتني بعدها فوقفت وحدي، يداي في جيبي، أضم أطراف البالطو إلى جسدي، إلى أن ظهرت ثانية بعد قليل ومعها صديقة أخرى وروائية أيضًايضاأ، وعندما لم ترني الأخيرة شاورت لها بيدي، فجاءت إليَّ وهي تقول معاتبة:

- إيه اللي عملته ده؟

- عملت إيه؟

- كان لازم تقول لها الخبر ده دلوقتي؟

عرفت أن صديقتي بعد أن تركتني تجولت في المكان مثلما فعلت، إلى أن رأت صديقتها فجرت إليها ودفنت رأسها في صدرها.

أصبح الجو شديد البرودة، وأنا واقف معهما لا أزال، وأخذت أردد مبتسمًا أنني أيضًا لم أكن أرغب في سماع خبر كهذا، أبدًا، ولكن ما الحل وقد سمعته؟ لابد لي إذنْ أن أقذفه إلى غيري. أخذت أحكي لهما كيف شجعني الشاعر عندما أنجزتُ أول كتاب لي وأرسلته إليه بالبريد مع إهداء متواضع وتحته رقم تليفوني. وقتها مرت شهور إلى أن فقدت الأمل في أن يكلمني، وقلت في نفسي إنها عادة الشعراء الكبار، مشغولون على الدوام.

إلى أن جاء عصر يوم كنت جالسًا فيه إلى القهوة بعد العمل، عندما دق جرس الموبايل برقم مجهول، رددت، سمعت صوتًا خشنًا بعض الشىء، متمهلًا، خفيضًا، يقول لي اسمه.

كلفته ربع ساعة من الحديث عبر الموبايل وأنا أصرخ وأضحك في الشارع، ثم بعد أن انتهيت، سجلت اسمه على الموبايل، وأخذت أظهره وأنظر إليه كل عدة دقائق.

صرت أحدثه بعدها كلما أعدت قراءة أحد دواوينه، وأسهب في شرح أسباب استمتاعي بهذه القصيدة أو تلك.

وعندما أصدرت كتابى الأخير أرسلته إليه، وتركت له فسحة من الوقت، ثم بدأت أحادثه، كان يرد عليَّ في كل مرة الصوت الأوتوماتيكي، يقول لي: اترك رسالتك بعد سماع الصفارة، ثم اضغط على علامة الشباك. أظل أتكلم ثم أبحث عن علامة الشباك فلا أجدها أبدًا، وتنتهي الرسالة عند حدودي، ولا تصل له.

ثم وجدته في عزاء الشاعر الكبير الآخر، كان السرادق مزدحما وهو يسلم على الناس من بعيد، رآني، كدت أذهب إليه أسلم، لكنني خجلت أن أجلس معه لأسأله عن رأيه في ديواني، في ذلك الظرف الحزين، كما أشفقت عليه من كثرة السلام على الناس، فلم أذهب. كنت مخطئًا بلا شكٍّ في هذا الأمر الأخير.

انتهيت من حديثي، وكان صديقتي قد أشاحت بوجهها جانبًا عن الناس وهي تسمع حديثي، ثم انصرفت مع صديقتها لتجلسا إلى القهوة، أما أنا فقد اعتذرت وبقيت واقفا في مكاني، رجعت إلى تجوالي ثانية في أرجاء الميدان، كانت الناس تضحك وتتفاعل في اندماج كامل، وفكرت أنه بالنسبة إليَّ قد حان وقت الانصراف، فأخذت طريقي إلى أول الميدان ناحية الفرقة الموسيقية متجهًا إلى فتحة الخروج، وربما البرد وشدة الرياح هما اللذان عكرا مزاجي تلك الليلة، كانت الرياح شديدة حقًّا، كانت تحف بأذني، وتصدر صفيرًا منعني من سماع أي شيء بوضوح، حتى صوت الفرقة صار ضعيفًا جدًّا، لدرجة أنني وأنا خارج، لم أعد أسمع سوى صوت الكمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩٣

كنت لا أزال قادرًا على رؤية وجهه الضاحك وسماع ضحكته المجلجلة، حتى وأنا أرى الخشبة التي بها جثمانه، تعبر الرصيف إلى السيارة البيجو.

بينما تقف ابنته على الرصيف مائلة بكتفها على كشك السجائر، ثم عندما أدخلوا الجثمان في السيارة ذهبت وأسندت رأسها على الشباك الأمامي ناظرة إلى الداخل وأخذت تتمتم.

أيضًا كان هناك بعض من أقاربنا يقفون منتظرين نزول الجثمان. مال أحدهم نحوي وقال: - ما شفتش حد كان عنده أمل في الدنيا زيه. لحد الأسبوع اللي فات كان عمال يكلمني في المشروع اللي كان عايز يعمله.

المرحوم كان قد بلغ من العمر الرابعة والثمانين، وقد فقد معظم صحته بسبب الأمراض التي تكالبت عليه في سنوات الشيخوخة. «غرغرينا» في الساق اليمنى أدت إلى بترها ببنج خفيف نظرًا لضعف عضلة القلب. فقدان العين اليمنى أيضًا بسبب السكر وخلعها وتركيب عين زجاجية مكانها. كنت أحدث زوجته –قريبتى-في هذا الموضوع، وسألتها كيف تحمل كل ذلك. قالت إنه –حتى-لم يصدر صوتًا واحدًا خلال هذه الأحداث المؤلمة. وكنت مصدقها.

ما زلت أذكر رجل المرور الذي جاء ليسجل مخالفة بسبب وقوف السيارات «صف تاني»، وأخبره الناس بأنها «حالة وفاة» فتراجع على الفور.

قدنا سياراتنا إلى المسجد القريب، ثم حمل بعضنا الجثمان ووضعوه في المكان المخصص للصلاة. كنا مبكرين فذهبت أتوضأ وعدت ثم صليت ركعتين، وجلست أنظر إلى الصندوق الخشبي الممدد أمامي. ثم أنظر إلى شاشة التليفزيون الموجودة بداخل رأسي. أراه فيها وهو يضحك ضحكته المجلجلة ثم وهو يخرج من المصباح السحري. يختفي هذا المشهد سريعًا لأعود أراه في مشهدي المفضل. الممثل يجلس إلى البار ينتظر رجلًا آخر كي يخبره بأنه يحب زوجته وأنه يريدها لنفسه. الممثل خائف بالطبع خاصة وأن الرجل الآخر معروف بجبروته وبسطوته على حياة الليل. البطل في الفيلم يظل يشرب الويسكي بإيقاع سريع ليستحضر الشجاعة الكبيرة التي يحتاجها ليواجه الرجل الآخر. عندما يأتي أخيرًا ومعه حارسه الرهيب ينزل الممثل من على كرسي البار الذي كان جالسًا عليه ويقف أمام الرجل ويخبره بالحقيقة. ويكون حينئذٍ مصيره المؤلم المتمثل في علقة كبرى من الرجل وحارسه ألقت به فوق البار أحيانًا، وأوقعته على الأرض أحيانًا أخرى، بينما يبكي البارمان بطريقة كوميدية.

جاءتني شاشة تليفزيون أخرى، رأيت نفسي فيها وأنا أحكي له هذا المشهد في بيته، وأعبر له عن إعجابي بالكوميديا التي خلقها الممثل في جلوسه إلى البار، وسؤاله الدائم للبارمان عن الرجل الآخر، وكيف ظل يعب من الويسكي نتيجة توتره ليستمد الشجاعة، ثم يعاود السؤال عن الرجل بصوت عال ربما ليؤكد لنفسه من الداخل أنه شجاع، وكانت شخصية البارمان مصري خواجة، فكان يجيب على أسئلة الممثل بطريقة كوميدية. عندما كان يسأله الممثل: - النمساوي هنا؟

كان يجيبه:

- مشي يا حبيبي.. مشي.

يشرب الويسكي ثم يسأل ثانية: - متعرفش راح فين؟

- معرفش يا حبيبي.. هو مش بيقول رايح فين.

- طب جاي تاني؟

- ممكن.

- طب لما ييجي ابقي قوللي.

يشرب مزيدًا من الويسكي، ثم يرجع إلى الأسئلة: - النمساوي جه؟

- لسه يا حبيبى.

يحتد قائلًا:

- يعني كان هنا؟

- أيوا يا حبيبي.

يعلو صوته أكثر حتى يقارب الصراخ: - أمال راح فين؟

- معرفش يا حبيبي، آه يا نافوخ بتاع الأنا!

كان تعليقه مبتسمًا على روايتي للمشهد أن قال إن هذا المشهد وحده احتاج إلى يوم كامل لتصويره، فسر كلامه بأن المخرج كان دائم التوجيه للممثل بأن يظهر تألمه من الضرب المتواصل الذي قُوبل به من الرجل وحارسه، لكن ملامح وجهه لم تكن تستجيب بالطريقة التي يريدها المخرج، في النهاية همس المخرج لهما: - اضربوه بجد.

أذن المؤذن للصلاة فقمنا صلينا، ثم جاءت اللحظة الأصعب فصلينا عليه. وكنت أشك في أن أحدًا غيري يمكن أن يكون باله مشغولًا بما كنت مشغولًا

به من مشاهد سينمائية بالأبيض والأسود.

سارت السيارات بعدها من عابدين إلى كوبري الأزهر، فوقفت بعضها فوق الكوبري فى انتظار السيارات الباقية التي لا يعرف أصحابها الطريق، في تلك اللحظات بدأت أرى مشاهد أخرى، فرأيته يوم زفاف ابنته، عندما أنزلوه بالكرسي المتحرك إلى السيارة التي أقلته إلى مكان الاحتفال بدار الإفتاء، وهناك، وقت التقاط الصور، كان يقف دون مساعدة أحد كي يكون طوله مساويًا لأطوال من حوله. يدفع جسمه إلى أعلى بذراعيه القويتين وبالساق الوحيدة التي يملكها فيقف بينما كفاه يلمسان جانبي الكرسي استعدادًا لمعاودة الجلوس بعد انتهاء اللقطة. كنت أطيل النظر إليه فأتذكره عندما كان يسرق الكاميرا في السينما من الممثلين الآخرين بجسده الضخم وملامحه المميزة، وبسبب ملاحظتي له فقدت التواجد في عدة صور تذكارية من صور العائلة، ولم أظهر إلا في صورة واحدة معه ف هذا اليوم.

كنا قد وصلنا جميعا إلى المقابر. كيف يسعد المرء عند مرآها؟ يظل المرء متحاملًا على قلبه طوال مدة بقائه هناك إلى أن يغادر، فيرى الحياة من جديد.

بينما كان الناس يحملونه من السيارة إلى المدفن، كنت أراه واقفًا بجانبي في صورة فوتوجرافية من حفل خطوبتي القديم، ثم تبدأ الصور في التسارع فأراه يسمعني وأنا أغني على العود في منزلنا، ثم وهو يحكي لي -وأنا في منزله- عن القاهرة في العشرينيات والثلاثينيات، وسمات الأحياء الشعبية المختلفة في ذلك الحين، وإذ ذاك بدأ آخر نوع من أنواع الصور في التكون، كتلك الصورة التي حكتها لي زوجته عندما كان يعود أبي في أيامه الأخيرة وهو فاقد البصر تمامًا، ويجلسان وحدهما، فيبكي أبي في حضرته، وأنا لم أرَ أبي يبكي أبدًا لشيء خاص به، حتى كدت أظن وقتها أنه لا يتألم، أو أنه لا يعرف أنه مريض.

انتهينا من الدفن، وصار بعض الناس يقرؤون القرآن، وأحدهم وقف يعظ الناس ويدعو للمتوفي، بينما شاهدت ابنته ثانية تقف بالضبط أمام مكان الدفن لا يسمع منها صوت، وبينما كنا نخرج كان الانقباض يلازمني. لقد عاش الرجل تقريبًا ضعف عمري، وحقق نجاحًا كبيرًا في عدة مجالات، ثم انتهى الأمر بهذا الملاكم العملاق بحظ أقل كثيرًا من كثيرين لم يملكوا أصلًا أيًّا من حظوظه ومكتسباته.

خرجت بالسيارة وأنا أفكر إلى متى سيحتمل جسدي أعباء الحياة؟ وكيف ستكون صورة غدي؟ ورأيت الناس يسيرون في الشوارع وهم كثر، فقلت لا محالة فإنه مفرقهم الموت، ولاحت لي صور من مباهج الحياة التي أعرفها فلم أرَ لها أي معنى.

وكنت قد وصلت إلى ميدان الحسين، عندما رأيت فجأة فتاة تسير على الرصيف مرتدية بنطلونا أبيض، كنت أراها من الخلف، فكان جسدها متناسقًا إلى درجة لا تصدق، يهتز بقدر محسوب مع خطواتها على الرصيف الجميل، أما شعرها فقد كان متوسط الطول بنيَّ اللون، تمنيت وقتها أن يستمر زحام الشوارع فلا أسبقها بسيارتي. وظللت طول فترة رؤيتي لها شاعرًا بسرور حقيقي، عميق أخاذ، وأنا الذي كنت أظن أن شعور الحزن سيبقى إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩٤

كان الوقت ثاني أيام العيد الكبير حينما فتح الشقة وخرج مصطحبًا امرأتين عجوزين إلى المستشفى. كانوا في طريقهم لزيارة خالته المريضة والمقيمة بصفة دائمة هناك. لم يكن مرضها من النوع الذي يُعالج، بل كان ما أصابها جلطة ثانية في المخ أدت إلى شلل نصفي ترتب عليه عدم إمكان إقامتها بالمنزل لعدم توفر الرعاية فنقلوها إلى المستشفى. هناك أصابتها على مدى الشهور أمراض أخرى كالنزلة الشعبية والتقرحات نتيجة النوم الدائم، بالإضافة لعدم التحكم في الإخراج. فقدت بعدها القدرة على الكلام كما فقدت معظم وزنها وتيبست ساقاها بسبب ذلك.

ثم جاء يوم أمر الطبيب فيه بعمل فتحة جانبية في بطنها لتغذيتها بهذه الطريقة بعدما أصبح تناولها الطعام بالطريقة العادية يمثل خطورة على صحتها. كان بعض الطعام قد وقع مرة في قصبتها الهوائية واستقر في رئتيها نتيجة عدم التحكم في البلع مما استدعى عملية لتنظيف الرئتين.

كان معتادًا على زيارتها مرة كل أسبوع. ما إن يدخل حتى يسلم عليها فتمسك يده وهي نائمة في السرير. تظل ممسكة بها طوال الوقت إلى أن يحين موعد المغادرة فيسحب يده من يدها برفق وهي تُقاوم بضعف. بعدها يقف ويحاسب الجليسة على النفقات الأسبوعية ثم يغادر في صمت.

أما في الأعياد والمناسبات، فتحضر أمه وخالته الأخرى من الإسكندرية وتكون فرصة يصطحبهما فيها لزيارة أختهما وهو ما فعله في ذلك اليوم.

لم يكن هناك أي أصوات في الشوارع؛ لأنها كانت تقريبًا خالية، فكان بإمكانه قطع المسافة من البيت للمستشفى في دقائق قليلة، إلا إنه، وعلى الرغم من خلو الشوارع، ولسبب لا يدريه، كان يقود متمهلًا.

عندما وصل إلى المستشفى أنزل أمه وخالته أولًا بجوار الباب الرئيس الذي ستدخلان منه، وطلب منهما الانتظار حتى يركن السيارة ويرجع إليهما.

بدخولهم الغرفة، سلمت الأختان على المريضة التي لم تجب، بل ظلت تنظر إليهما من دون أن يستطيع أحد أن يجزم بما إذا كانت تعرفت عليهما أم لا. وقفت المرأتان بجوار سرير المريضة كل من ناحية، وظلتا تكلماها قليلًا بلا أي ردٍّ من ناحيتها، ثم جلستا على كرسيين متجاورين مع بضعة همهمات ودعوات لها بالشفاء، بعدها بدأت الأصوات تخفت تدريجيًّا، وما هي إلا ثلاث دقائق حتى كان الصمت قد حل على الجميع.

أخذ الشاب يدير نظره فيما بينهم، وعندما رأى المشهد بدأ حوارًا لا قيمة له مع الخالة الكبرى التي لا تسمع جيدًا. كانت كلما انتهت محاولته يجد الصمت

قد عاد مجددًا إلى الغرفة فيحس بعمق مجهوده. وكان يذهب بخياله إلى الغرف الأخرى ويفكر في إذا ما كانت صامتة هي الأخرى أم لا.

لا يدري كم من الوقت مضى قبل أن يقرر أن الوقت قد حان للذهاب. الخالة الكبرى عيناها زائغتان ساهمتان في لا شيء. كانت قد أُصيبت بالزهايمر منذ عدة سنوات وتتعاطى من أجل ذلك أدوية غالية الثمن ليس لها تأثير إيجابي ملموس. أما الأم فتنظر من شباك الغرفة إلى الشارع وبين الحين والآخر تلتفت إلى الابن. المريضة عيناها لا تلتقيان مع أختيها بل مثبتتان على شاشة التليفزيون الدائر والمعلق إلى الحائط بحامل معدني أسود.

نظر إلى أمه، وسألها بإشارة من عينيه:

- يا للا؟

أمسكت الأم حقيبتها بمجرد تلقيها الإشارة. وما إن همت بالوقوف حتى غادر الحجرة من دون أن يسلم على الخالة المريضة. تركهما تسلمان عليها بطريقتهما الخاصة. وفي الممر المؤدي إلى باب الجناح وبعده المصعد كانت خطواته تسبق خطواتهما إلى الخارج. ركبوا السيارة وانطلقوا إلى البيت.

وفي السيارة كانوا جميعًا صامتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩٥

في الماضي البعيد لم أكن أفهم سبب بكائها، حيث كنت بمجرد فتحي لباب الشقة تسيل دموعها، ثم تبكي بصوت مسموع، حتى تبلل وجهي بدموعها، وتحتضنني، وكنت أتحسب لهذه اللحظة كثيرًا وأتمنى ألا تحدث، كنت أتمنى مثلًا أن تحييني وهي مبتسمة، أو أن نتبادل الوعد باللقاء اللاحق دون انفعالات قاسية، لكن هذا لم يحدث أبدًا على مدار العمر.

كنت صغيرًا عندما كنا نحضر إلى القاهرة، فنقيم في بيت جدتي، وبسبب ظروفي الأسرية كنت أنا الطفل المدلل، البكري، وكان البيت بيتي بالفعل والكل يتسابق لتدليلي، أما جدتي فقد كنت أول نسلها من بناتها، والذكر الوحيد وسط بناتها، خالاتي، بعدما توفى خالي وهو في السابعة والأربعين دون زواج.

أظل أقول لها إننا سنتقابل ثانية في العيد الكبير مثلًا، أو في إجازة الصيف، كنوعٍ من التسرية عنها، وإن المسألة لن تطول عن شهور، ثلاثة أو أربعة أشهرٍ على الأكثر، لكني ما إن أفتح باب الشقة، حتى تأخذني في حضنها وتبكي.

كنت في الواقع أحزن لمغادرتي بيت جدتي هذا العامر بالحنان، ففي الإسكندرية بيت أبي المشهور بصرامته وبعدم ميله للتدليل، خاصة أننا ثلاثة أبناء ذكور، وهو كبير في السن نسبيًّا عن أمي، ويخشى إذا حان الأجل أن «البيت حيتخرب» وأنا لا أفهم كيف؟ ما الذي سينخرب حقيقة؟ سنكمل تعليمنا وستسير الحياة بنا كما تسير مع الآخرين، لكن ما فهمته لاحقًا أن أمي لم تكن لتقوى على ثلاثة أبناء ذكور بشخصيتها الوديعة المسالمة، وهذا ما كان يخشاه، وكان –في الغالب-على حق.

فهمت أشياء كثيرة بتقدمي في العمر، منها أن الإنسان يكون أكثر رهافةً وميلًا إلى البكاء، ببساطة لأنه قد صار عنده ما يشتاق إليه، ما يفتقده، كالأهل الذين غادروا، وكالصحة التي تتراجع تدريجيًّا مهما حافظ الإنسان عليها، ولأنه قد أصبح عنده شجن المفارقة، بتأمل المسارات التي سار فيها وفضلها عن غيرها، ثم تمنى لو عاد الزمن فغير من اختياراته، كاختيار المهنة، أو شريك الحياة، أو تراجع عن التورط في صراعات عائدها صفري، والتي سببت فقدان بعض الأصدقاء والمعارف كنتيجة طبيعية للمواقف الحادة.

كثيرة هي أسباب البكاء أو الشجن، ولكن كيف يفهمها مَن لم يختبر شيئًا بعد من الحياة، وكيف يرى الألوان غير المبصر؟

مرت أعوام كثيرة منذ وفاة جدتي، ولا أزال أذكر المرة الأخيرة التي ودَّعتها فيها على باب البيت، الشيء الغريب أنها للمرة الأولى لم تبكِ، ثم سألتني خالتي الواقفة بجوارها:

- جاي إمتى؟

كنت في التاسعة عشر، وأصبح حضوري للقاهرة شأن خاص لا دخل للعائلة به، أجيء وقتما أشاء، وأرحل متى أشاء، ردت عليها جدتي ردًّا لم تتفوه به من قبل:

- سيبيه براحته، هو لما يحب ييجي حييجي.

في نفس العام ماتت.

كنت قد تعديت الخمسين حين ماتت أمي، وبصرف النظر عن توجسي الدائم من يوم وفاتها المرتقب، على أساس حالتها الصحية، وتعديها الثمانين، وقلبها الذي ضعف، وشعورها شبه الدائم بالبرد نتيجة ضعف الدورة الدموية، أقول إنه بصرف النظر عن كل ذلك، كان القادم هو المثير للدهشة.

فبعد انقضاء اليوم الأول وعودة شقيقيَّ كلٌّ إلى بيته، سكن كل شيء لعدة أيام، ثم جاءتني مكالمة من أخي للاطمئنان وتبادل الأخبار، كانت أول مرة أسمع فيها صوته بعد وفاة أمي، وتخيلت للحظة مرت كبرق، أن ما من شيء أجبره على الاتصال بي، وأن الرابط الذي كان بيننا قد انقطع، وأن علاقتنا المستقبلية أصبحت رهينة إرادتنا فقط، ليس هناك من يرعاها، ولا نحن نقيمها إرضاء لأحد، وأننا أصبحنا كبارًا، على الأقل أنا، أصبحت الأكبر، فبكيت بعد المكالمة، وكانت أول اختبار لعلاقتنا بعد اختفاء الأم.

إلى الآن نتبادل الزيارات، ويدهشني في كل مرة العمر الذي انقضى منذ أن كنا أطفالًا بالأمس، لا أتذكر كيف مر، ولا في ماذا قضيته، نسيت كل التفاصيل وأصبحت حياتى مقسمة إلى جزئين: صباي، واليوم، في وجود الأم، ثم في غيبة الأم.

منذ أسبوع أيضًا زارني أخي الأصغر، كانت معه زوجته وابنه الجميل، مكثا معي ساعتين وقوفًا حيث كنت أجري تجديدات كبيرة في بيتي، شملت كل شيء تقريبًا، المطبخ والحمَّام وأعمال الدهانات، كان همي أن أمحوَ اللون القديم الذي اعتدت عليه والذي عاصره الأهل، محوت كل شيء قديم للتخفيف من غلواء الذكريات.

استأذنوا في الانصراف حيث كانوا مسافرين إلى الإسكندرية، خرجت معهم إلى حيث المصعد أديره لهم بالمفتاح، ألحوا عليَّ في القدوم إلى الإسكندرية،

وأن أحاول أن أعد نفسي، ثم جاء المصعد فركبوا بعد أن قبلت ابن أخي واحتضنته، وبعد أن غادروا طفرت الدموع من عيني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فهمت أيضًا، بمرور العمر، أن كثيرًا من الناس الضحَّاكين، إنما هم ميالون للبكاء في قرارة نفوسهم، وأن دمعتهم أقرب من غيرهم، أبي كان من هؤلاء، رجلًا ضحوكًا، مبتكرًا للنكات، خاصة عند اجتماع العائلة، يحكي في وجود خالتي وزوجها، أو في وجود خالاتي وأمهن، عن ذكرياته بلا انقطاع، عن ذكرياته في سهرات نادي الترسانة ونوادر لاعبي الكرة، أو عن صديقه الذي كان يسهر يوميًّا حتى الفجر ثم يعود إلى البيت في الحي الشعبي، فيصعد السلم الخشبي المؤدي إلى باب الشقة ويفتحه، فإذا استيقظ أحد أبويه الكبيرين فإنه يسأله عما إذا كان سهرانًا بالخارج كل هذه الفترة فيجيب بلا، وأنه عاد مبكرًا فنام، ثم استيقظ لصلاة الفجر فنزل يصلي وعاد.

يقوم أبي في تلك السهرات بالتمثيل الجسدي لحركة فلان أو علان في المشي، ويقلد نبرات صوته فيسَعْدُ الجالسون، ولا يكتفي، بل يبحث عن موضوعات أخرى كمادة للضحك.

ثم في جلسة جمعتني به أحد شهور الصيف، وكنا وحدنا في المنزل، بدأ يحكي لي عن أمه، جدتي التي ماتت وأنا في عمر أربعة أشهر، فأدركتني ولم أدركها.

استرسل أبي في الحكي لعدة دقائق، شرح لي فيها كيف كانت أمه تدنيه بقربها على الكنبة في حنان وتحتضنه قائلة له:

- تعال اقعد جنبي يا عبده.

سالت دموع أبي فجأة وتحشرج صوته، وأنا –ابن الحادية عشرة-مذهول مرتجف في داخلي، وسؤالان يطحنان عقلي، الأول هو أين يختفي هذا الضعف؟ والآخر كيف لا يزال يبكي أمه بعد مرور أكثر من عشر سنوات؟

مسح دموعه وتدارك نفسه أمام ابنه الأكبر، ثم سألني:

- انت أخدت بالك إن أنا عيطت؟

وأنا أجبته –متحرجًا-بالإيجاب، والآن فقط أعلم بوضوح إجابة السؤالين، أولًا: يختفي الضعف وراء الضحكات، وثانيًا: لا توجد سنوات تكفي لنسيان الأحباء.

ثم كنت في الخامسة عشر حينما رأيته يبكي للمرة الثانية، كانت أمي مسافرة لمحاولة إيجاد عمل في «أبو ظبي» بعيدًا عن عملها الحكومي، مدفوعة برغبتها في توفير لقمة العيش لأسرتها، خاصة بعد خروجه على المعاش من وظيفته الحكومية، وعدم توفيقه في البحث عن عمل، وازدياد مطالب ثلاثة صبيان. عارض أبي سفرها لفترة، ثم رضِخ تحت تأثير الواقع

ونمو قيم الانفتاح، وفي يوم السفر كنا في القاهرة، وأمام باب العمارة في بيت جدتي أنزلتُ حقيبتها، ثم دخلت إلى حيث يقفان. فرأيت أبي يقف أمام أمي وجهًا لوجه، ثم ينهار فجأةً باكيًا على صدرها، وأجري أنا مهرولًا إلى فوق متجنبًا المشهد برمته.

الآن فقط أدرك أنه لم يكن قويًّا كما كنا نتصور نحن أولاده، كان قاسيًا نعم، معاقبًا بالضرب أحيانًا وقت الواجبات المدرسية، لكن دافعه لم يكن القسوة، بل الرهافة، وعلى كل حال، فقد نسيت نفوري الشديد منه وقت صباي، وحل التفهم الكامل، والتسامح، والحب، والإحساس بالصداقة، محل ذلك الشعور البغيض، وكلما أتقدم في العمر تحل المسامحة محل أي شعور آخر، ليس تجاه أبي فقط، وإنما تجاه نفسي أيضًا، أعلم أني ضعيف وأسامح نفسي، وأعلم أن الآخرين ضعفاء فأسامحهم، وليس لي من حاجة حقيقية في هذه المرحلة من حياتي سوى أن يسامحني الناس على أي أذى؛ عسى أن أكون ألحقته بأحدهم، وألا تعلق في صدر أحدهم أي شائبة من ضيق مني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩٧

كانت عصبية منذ أن عهدتها في الطفولة، فيمكن لها أن تثور على أي إنسان، بل يمكن أن تصل بها الثورة إلى السباب، أما إذا كان المرء في بيتها يمكنها أن تطرده.

لا تكون العصبية طول الوقت بالطبع، ولكنها في الأغلب الأعم مسببة، وإن كان رد الفعل مبالغًا فيه.

لا تخرج الأسباب الأساسية للعصبية في الغالب عن عدم اتباع قواعد النظافة في البيت، كمسح الأرجل في الممسحة قبل الخروج من الحمَّام، أو عند دخول الشقة، أو ترك الأطباق في حوض المطبخ دون إلقاء بعض الماء عليها بعد إلقاء بواقي الأكل في الزبالة.

توجد أسباب أخرى للثورة ظهرت بعد ذلك بسنوات عديدة، كالخروج عن الطريق القويم، متمثلًا في السَّهر ليلًا إلى ما قبل الفجر، أو تعبئة البيت برائحة الكحول الخارجة من الفم، أو أخذ التليفون الأرضي إلى غرفة النوم بعد السهرة، لتكملة الحب مع حبيبة القلب.

كانت تلوم على أمي عدم اهتمامها بي، الذي يتمثل -من وجهة نظرها-في تكريس وقتها لدفعي نحو الزواج، وكنت قد بلغت الأربعين، معتصمًا.

شهد بيت العائلة أيضًا شجارات كثيرة مع أخواتها البنات، دفع الأخوات في أحيان كثيرة إلى مغادرة المنزل.

وكنت في صبايَ مقيمًا معها بشكلٍ كبيرٍ، في إجازات الصيف على الأقل، تاركًا الإسكندرية لكي أقيم معها وجدتي، مكرسًا جهدًا ساذجًا جميلًا، وكبيرًا، لإصلاح ما بينها وأخواتها، خالاتي.

وبعد زوال الصبا وبدء الشباب تيقن المرء أن الطبع غلاب، وأنها انفعالية حادة، وأن أفضل وسيلة للتعايش معها هي تجنب ما يضايقها.

لم تتزوج خالتي فتحية أبدًا، على الرغم من أنها كانت أجمل أخواتها، خطبت مرة واحدة في الشباب إلى ابن عمتها الذي لم يكن يسكن العاصمة، فلم تعجبها المطاعم التي كان يصطحبها إليها، أو الأماكن التي كان يرتادها، ولا لكنته في الحديث، فتمَّ الانفصال.

من يومها ناصبت العداء للرجال إذا ما جاؤوا أزواجًا محتملين، وكان من ضمن جهودي في صباي محاولاتي إقناعها بالزواج، كابن أخت محب نشأ في كنفها، وذات يوم سألتها عن عمرها وكان في تقديرى لا يزيد عن الخامسة والعشرين، فقالت لي:

- لأ. أربعين!

ثم أرتني بطاقتها الشخصية فاعتراني الذهول، ربما لأني كنت أظن أن سن الأربعين هذا سن كبير، وهي قالت بل هو كذلك، وإنني يجب أن أكف عن مطالبتها بالزواج ما دمت عرفت الحقيقة، وأنا سكتُّ بعد ذلك اليوم.

إليها ترجع معرفتي بوسط البلد في القاهرة، فقد كنا نتفسح فيها كثيرًا، نركب الأوتوبيس متجهين إلى ميدان التحرير، ثم نسير هناك عبر الشوارع المعروفة والميادين، فندخل السينما، ثم نأكل الإسباجيتى أو المكرونة بالبشاميل، وندخل محل البن البرازيلي نشرب فيه مشروبات أخرى غير القهوة التي كانت ترفض السماح لي بتناولها، ثم قد ندخل السينما ثانية، وعندما نخرج نشرب عصير القصب من محل العصير في أول شارع سليمان باشا قبل ميدان التحرير، قبل العودة للبيت.

مرت خمسة وثلاثون عاما إضافية قبل أن تمرض مرضها الأخير، واضطررتُ إلى الاعتناء بها لفترة، قبل أن تذهب بشكل نهائي إلى المستشفى لتقضي فيه آخر السنوات، كان الألم بالنسبة لي غير محتمل، وذلك على الرغم من وجود الجليسة، فقد كنت لا أرضى أحيانًا عن أدائها، ولا أستطيع في الوقت نفسه إلا أن أرشدها برفق، مخافة أن تتركنا، لكن اليوم الأكثر إيلامًا كان عندما غابت الجليسة بعذر، واضطررت إلى تغيير حفاضتها بيدى، كانت تقاوم، وكنت أعلم، وأقول لها «معلش»، لأن الأمر كان حتميًّا، والأمر المدهش أني اندهشت لما رأيت عورتها، كأني لم أكن أعلم أنها امرأة، كانت شيئًا أكثر من ذلك بكثير، كانت خالتي.

أما عندما تشاجرت مع البوَّاب المؤقت، الذي لم يكن يقيم في العمارة، بل يمسح السلم فقط كل أسبوع نظير أجر، وفتحت الباب وعلا صوتها، وهو يجادل في أمر لا أعرفه فيستثيرها أكثر، فقد استأتُ منها هذا اليوم، لأنه مهما يكن الأمر فهو أقل قيمة بكثير من حجم الشجار الذي تفتعله، والذي لا أفهم له سببًا، إضافة إلى الفضائح بين الجيران. قمت يومها من نومي في الصباح المتأخر لأدفع البواب العجوز بيدي كي ينزل ونُنهي المسألة، قمت وأنا منفعل جراء الزعيق المستمر الذي يوترني، لأنهي الأمر بطريقتي.

كان هذا منذ سنوات ليست بالبعيدة، فقد كنت قد تعديت الأربعين وقتها، لكن الفهم كان بعيد المنال لا يزال.

الآن أثور أحيانًا لأسباب -أراها فيما بعد- واهية، كأن أرى صندوق القمامة بعيدًا عن مكانه أمام باب الشقة، فأظن أن أولاد الجيران ربما عبثوا به وهو يلعبون، وأتصور نفسي وأنا أؤدب جيراني بحزم، فيما يخص طريقة تربيتهم لأبنائهم، وأتصور أنهم ربما يستهينون بي لأني أعزب، وأنه لو كانت هناك امرأة في

الشقة ما كان جرى ما جرى، فيتضخم شعوري نحو الرثاء لنفسي، بأنني لم آخذ نصيبي من الحياة، أقول إنه بعد أن يحدث كل هذا، يخطر لي أن أسأل البواب من باب التأكد، عمن فعل كذا وكذا ويحتاج إلى تأديب، فيجيبني باسمًا بأنه هو نفسه من فعل هذا أثناء مسح السلم، ثم نسي أن يرجعه إلى مكانه، فأبتسم له خجلًا من نفسي، وأفيق.

أثور أيضًا بسهولة أكثر من ذي قبل أثناء القيادة، أو عندما أجد الحواجز المعدنية بينما أركن سيارتي، وضعها أحد الواصلين كي يحجز مكانًا لنفسه، أصور المكان بموبايلي، ثم أبعث به لجريدة كتبت أنها تستقبل الشكاوى من المواطنين، وأهدأ، ثم لا يحدث شيء بعد ذلك.

وكلما أضبط نفسي متلبسًا بالعدوانية، آخذ في التفكير وأتذكرها، لقد أصبحتُ مثلها، أو أنني ذاهب لمثل ما ذهبت، لقد كانت محبطة، وكانت تشعر بأنها خرجت صفر اليدين من الحياة، بقيت في الشقة سنوات وحدها، فكانت –من فرط الوحدة-تأخذ في الصراخ أحيانًا حتى يبح صوتها، وماذا كانت تملك غير هذا في مواجهة الخسارة الكلية؟

أما أنا، فأستعين على كسر العزلة بمخالطة الأصدقاء، الخروج الكثير والسهر واللهو، وضحكاتنا التي تملأ الليل، وأستعين بكل ذلك على أعدائنا المشتركين: الصمت والعزلة والوحدة.

كنت ألومها في الماضي، والآن لا أفعل، الآن أقف باحترام أمام الأسئلة، وأكون متشككًا عند الإجابات، حتى مسلمات الماضي، تلك التي فهمتها بسهولة ويقين من قبل واعتقدت أنى انتهيت منها، إذا بها تعود إليَّ كلها، تباعا، على شكل أسئلة جديدة، ليس لدى لها إجابات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة